النشر الالكتروني - مجلة الحكمة
رقم : ٣١/٦٤
تاريخ : ١٤٤٧/٠٧/٢٩هـ الموافق ٢٠٢٦/٠١/١٨م

الغفلة

حقيقتها وعلاجها في ضوء الهدايات القرآنية

إعداد:
مايو ادريس يونس بحر

ملخص البحث

عنوان البحث: الغفلة .. حقيقتها .. وعلاجها .. في ضوء الهدايات القرآنية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبيِّنا وحبيبنا وقدوتِنا وشفيعِنا محمدٍ عليه من ربِّه أفضلُ صلاةٍ وأتمُ تسليم .. وبعد .

فرغبةً مني في نيل الشرف الرفيع بخدمة القرآن الكريم، وحرصًا على المساهمة في طرح مشاكل وهموم الأمة، ومعالجتها وفق المنهج الرباني، وتأكيدًا على أهمية تناول شتى القضايا والموضوعات في ضوء هدايات الوحي؛ أحببت أن أبحث في موضوع: الغفلة، حقيقتها وعلاجها في ضوء الهدايات القرآنية. خاصةً وأن مُعْظَم المجهودات في هذا الموضوع إما أن تَناولُها وعظيٌّ عاطفيٌّ، أو أنها لم تتعمَّق في الطرح والتفصيل، أو أنها لم تنطلق من الهدايات القرآنية ..

فاستَعَنت بالله، وسألتُه التسديد والتوفيق، لسدِّ ثغرة مهمة، وحاجةٍ ماسَّة، متعلِّقة بواقع الأمة ومستقبلها، فجمعتُ كلَّ الآيات التي وردت فيها مادة (الغفلة) بتصريفاتها واشتقاقاتها المختلفة، ووقفت على معانيها من عدة تفاسير لمتقدِّمين ومتأخِّرين، وجمعتُ ما وجدتُّه في بطون الكتب من هدايات الآيات، ووُفِقْتُ بفضل الله لاستنباط هدايات وفوائد أخرى، وكلها ضمَّنتها في البحث. ولأن السنةَ شارحةٌ ومكمِّلةٌ للقرآن؛ فقد ذكرتُ ما احتاجه البحث منها، مع بعض هداياتها.

وقد توصَّلتُّ بفضل الله تعالى إلى عدة أمور، أهمها: أن هناك تشابه كبير بين وظيفة القلب الحسية ووظيفته المعنوية، وتشابه في كيفية أدائهما، وأن الغفلة هي نومة القلب التي تسلبه قوَّته الذاتية، وتحول بينه وبين غذائه ودوائه من العلم والموعظة، اللذان يَقِيَانه من الآفات، بردِّ الشُّبهات والشَّهوات الواردة، وأن الغفلة في حدوثها وتأثيرها على وظيفة القلب أشبه بمرض الإيدز للبدن، بما يمكن أن نُطلِقَ عليها مرض فقدان القوة والمناعة المعنوية للقلب، وأن النفس هي المتسبِّب الحقيقي فيها، إلا أن البيئة المحيطة قد تؤثِّر كعامل مساعد لحدوثها، وأنها في غاية الخطورة، إذ تمنع من رؤية الحقِّ ومن اتِّباعه، وأنها على أقسامٍ وأنواعٍ ومراتبٍ، وأن الواقي والعاصم والمعالج الأساسي منها هو القرآن العظيم.

بسم الله الرحمن الرحيم

مـــقـــدمـــة

الحمد لله الذى أحسن خلق الإنسان وعدّله، وأنزل إليه القرآن فأشاد به بُناه وأكمله، وألهمه نور الإيمان فزيَّنه به وجملهُ، وعلَّمه البيان فقدَّمه به وفضَّله. والصلاة والسلام على خاتم النبيين وأشرف المرسلين، المبعوث رحمة للعالمين، الذي أكمل الله به النعمة وأتم به الدين، ونهاه عن الغفلة ونهي الصالحين فقال:﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ الأعراف:٢٠٥، فجعله منارةً للسالكين وقدوة للسائرين.

أما بعد

فإن من أهم ما يُبْرِزُ إعجازَ القرآن الكريم وخلودَه؛ هو أنه منهج الإصلاح الكامل والشامل على نطاق الأفراد والمجتمعات والأمم، في كلِّ عصرٍ ومصرٍ، مهما اختلفت الظروف، وتباينت الأحوال، ومهما بَعُدَ الناس عن الحق واشتطوا عن الطريق، أكَّد ذلك منزله فقال سبحانه:﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ الإسراء: ٩، وما أحوج الأمة الإسلامية المعاصرة لاستنباط هداياته وتفعيلها في الواقع!، لتُحْدِثَ الطفرة والنقلة التي أحْدَثتها في الرعيل الأول، وتعيد الأمة إلى سابق مجدِها وعزِّها بين الأمم، وتَستَرجِعُ للمسلم صفاءَه ونقاءَه القلبي الوجداني، واتِّزانه الفكري والسلوكي، في زمنٍ كثرت فيه الإنحرافات والشطحات، وانقسم الناس بين جافٍ وغالٍ، مُفْرِط ومُفَرِّط، وقليلٌ من اعتدل وتوسَّط.

وإنه لمن المسعد لنفسي، المهدِّئ لروع قلبي مما أصابه من هول الواقع؛ أن أجدَ كثيرًا من العلماء والدعاة والمؤسسات الدعوية يحملون نفس الهم، وذات القناعة، ويسعون جاهدين لإرجاع الموازين إلى نصابها، من خلال كتاباتهم وكلماتهم ومجهوداتهم المقدَّرة، الساعية لإبراز القرآن الكريم بوصفه البنائي الإصلاحي، وتفعيل خصيصته المتفردة في اجتذاب القلوب وتحريك المشاعر، وإقناع العقول، ودفعها لطلب التغيير إلى الأحسن في كل ما ينفع في الآخرة.

واستناداً على هذه الرؤى المشتركة يطيب لي أن أُسهمَ مع كل الراغبين في الإصلاح، بالكتابة حول موضوع الغفلة حقيقتها وعلاجها، في ضوء الهدايات القرآنية..

أهمية الموضوع:

تتلخَّص أهمية الموضوع في ثلاث نقاط محورية، هي:

١/ أن الغفلة تُضْعِفُ قوة القلب الفكرية التي بها يُدركُ التصور الصحيح والكامل لمنهج التزكية في القرآن الكريم، وتُوهِنُ القوة العملية التي بها يُنْزِلُ التصور على الواقع في نفسه ويسعى لتحقيقه في الآخرين، فتثمر نفساً مُدَسَّية مُتأثِّرة ومُؤثِّرة سلباً على، وبِمَنْ حولها من البشر.

٢/ أن الغفلة أول مانع من تحقيق البناء السليم للفرد المسلم وتزكية نفسه. وأول مهاوي الهالكين وعتبات الساقطين، فما من بليةٍ في الدين إلا وسببها الغفلة.

٣/ أنها عائقٌ ذاتي لا يمكن تجاوزه إلا بمعرفته بدقَّة، وعلاجه بعمق، بخلاف المعوِّقات الخارجية التي يمكن إزالتها، أو إضعافها، أو تجاوزها بعدة طرق.

أسباب اختيار الموضوع:

أهمية الموضوع كان أحد أسباب اختياره، ثم كان من الأسباب ما يمكن إجماله في النقاط التالية:

١/ أنه داء منتشر على نطاق واسع، ونسبة الإصابة به في ارتفاع مستمرٍ، ومقلقٍ، فهو شديد الارتباط بواقع المسلمين أفرادًا، وجماعاتٍ، ومؤسسات، فعرضه بالدراسة إسهامٌ في تحسين الواقع.

٢/ أنه مُهمَلٌ إلى حد كبير، إذا تمَّ تناوله فمن خلال المواعظ والخطب العاطفية –غالبًا–.

٣/ أن دراسة الغفلة من خلال هدايات القرآن يُبَرهِنُ على أثر تدبر القرآن في تجليتها، وكيفية تجنُّبها، وطرق علاجها، ومن ثمَّ تجاوز أخطر عائق للبناء والتزكية.

٤/ الرغبة في خدمة الأمة الإسلامية من خلال المساهمة في إبراز الحلول القرآنية لأخطر أدوائها.

أهداف البحث:

يهدف هذا البحث إلى تحقيق ثلاثة أمور:

١/ بيان حقيقة الغفلة وخطرها، وكيفية حدوثها، والمتسبِّب فيها، ثم التَّوصُّل الى الوصفة العلاجية الناجعة من خلال تدبر القرآن الكريم، واستنباط هداياته.

٢/ البرهنة على كمال وشمول منهج القرآن في وقاية وعلاج الإنسان من كل الأدواء.

٣/ التأكيد على أهمية الرجوع للقرآن لكلٍّ من أراد القيام بدور إصلاحي من الأفراد أو المؤسسات.

المنهج العلمي الذي سار عليه الباحث:

المنهج المتَّبع في كتابة البحث هو المنهج الاستقرائي الموضوعي، والتحليلي، والذي يعتمد على جمع الآيات التي وردت فيها مفردة "الغفلة" بكل تصريفاتها، ثم دراسة تفسيرها من عدة مصادر، وجمع واستنباط هداياتها، ثم توزيعها على فصول ومباحث الدراسة، مع الالتزام بقواعد البحث العلمي المقرَّرة، غير أني لم التزم بالترجمة للأعلام الواردة في ثنايا البحث..

الدراسات السابقة:

أبرز ما يمكن أن يُعدَّ إنتاج أو دراسة سابقة لهذا الموضوع بحثان وكتاب، وهي:

الأول: بحث بعنوان: حديث القرآن الكريم عن الغفلة وعلاجه لدائها، للدكتورة فيحاء محمود الرفاعي، أستاذ مساعد للتفسير وعلوم القرآن كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بالمنصورة. وهو منشور على الشبكة العنكبوتية، يقع في ستٍ وسبعين صفحة.

الثاني: بحث لنيل درجة الماجستير بعنوان الغفلة في ضوء الكتاب والسنة - دراسة موضوعية، الباحثة إيمان صالح مصطفى الرفاعي، الجامعة الإسلامية بغزة، كلية أصول الدين، تخصص التفسير وعلومه، والبحث من منشورات الجامعة الإسلامية بغزة، يقع في مئتين وسبع عشرة صفحة.

الثالث: كتاب الغفلة مفهومها، وخطرها، وعلاماتها، وأسبابها، وعلاجها، المؤلف: د. سعيد بن علي بن وهف القحطاني، الناشر: مطبعة سفير، الرياض، توزيع: مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، الرياض، يقع في ثمانٍ وسبعين صفحة.

التشابه والالتقاء بين الدراسات السابقة وهذا البحث:

- اشتركوا جميعًا في أنهم دراسة موضوعية من خلال نصوص القرآن الكريم.

- تغطية الموضوع من عدة جوانب شملت المفهوم، والأعراض، والأسباب، والعلاج .

الاختلاف عن الدراسات السابقة:

هذه الدراسة في ضوء الهدايات القرآنية، والتي تعطي رؤية أدق، وأصوب لسائر القضايا، وظهر ذلك من خلال الإضافة التي جاءت في هذا البحث تحت العناوين المشتركة مع الدراسات السابقة.

الجديد الذي سيقدِّمه البحث:

الكشف عن حقيقة الغفلة من خلال هدايات القرآن الكريم، بصورة أكثر وضوحًا، وأكبر شمولًا مما سبق، ووصف العلاج الناجع والمتجذِّر لداء الغفلة، كما أشارت إليه الآيات القرآنية بمعناها وهداياتها الظاهرة والخفية، ومن الجديد الذي احتوى عليه البحث:

١/ التمهيد لوظيفة القلب المعنوية بشرحٍ علميٍّ مدعوم بالرسم للوظيفة الحسية للقلب، وبيان التشابه الكبير بين الوظيفتين، وبيان كيفية أداء القلب لهما..

٢/ شرح وبيان كيفية حدوث الغفلة، والسبب الجوهري والأول لحدوثها.

٣/ بيان أقسام وأنواع الغفلة بصورة تختلف عما تمَّ تناوله في الكتب والأبحاث السابقة.

٤/ جمع كل الأسباب والأعراض التي ذُكِرت في الدراسات السابقة وغيرها في سبب كلِّي وعرض كلِّي، تندرج تحته كلّ مظاهر الانحراف عن الدين.

٥/ تقسيم الأعراض بحسب نوع الغفلة وصاحبها.

ولعل ما يعين على تحقيق المقصود وبلوغ المنشود هو أني -بفضل الله عليَّ- من الدفعة الأولى التي تخصَّصت في علم الهدايات، هذا العلم الذي انفرد واستقلَّ عن علوم القرآن حديثًا، وحُقَّ له أن يكون كذلك لأهميته وشموله وشدة الحاجة إليه. ولقد لاحظت أن رؤيتي للدين والكون والإنسان والحياة، وسائر الموضوعات بعد دراسة الهدايات؛ صارت أشمل وأعمق مما سبق، وهذا هو المراد للأمة، أن توسِّع فهمها للنصوص إلى أبعد مدىً ممكن، بما يؤدِّي إلى حلِّ جميع مشكلات الحياة، وفي ذات الوقت تُستنبط منه الأصول والإشارات لسائر العلوم النظرية والتطبيقية، والتي تبرهن على أن القرآن الكريم هو القائد، والضابط، والموجِّه للحركة العلمية، وعلى وفق ذلك يجب أن تتعامَلَ معه الأمة..

والأمر الثاني الذي يُعِين على تحقيق الهدف من البحث هو دراستي في المجال الطبي قبل تغيير تخصصي إلى العلوم الشرعية، فقد أَسْهَمَ بصورة كبيرة في رؤية وتشخيص الأمراض المعنوية على نَسَقِ الطريقة الطبية في التشخيص، ووصف سير المرض ومضاعفاته، والعلاج الأنسب له.

هيكل البحث:

يتكون البحث من مقدمة ومبحثين وخاتمة:

المقدمة ذكرت فيها أهمية الموضوع وأسباب اختياره، أهداف البحث، والمنهج العلمي المتبع في البحث، الدراسات السابقة، والجديد الذي سيقدمه البحث..

المبحث الأول: **حقيقة الغفلة وأسبابها يحتوي على تمهيد وثلاثة مطالب**

التهميد : ويشتمل على:

تشريح القلب - بيان وظيفة القلب الحسية - بيان وظيفة القلب المعنوية

المطلب الأول: تعريف الغفلة في اللغة والاصطلاح

المطلب الثاني: ورود الغفلة في القرآن الكريم ودلالاته

المطلب الثالث: أسباب وكيفية حدوث الغفلة

المبحث الثاني: **مظاهر الغفلة وأقسامها وكيفية علاجها ويحتوي على ثلاثة مطالب**

المطلب الأول: أقسام وأنواع الغفلة

المطلب الثاني: أعراض وعلامات الغفلة

المطلب الثالث: علاج الغفلة

الخاتمة: وتتضمن أهم النتائج والتوصيات

الفهارس

المبحث الأول: حقيقة الغفلة وأسبابها يحتوي على مبحثين

المطلب الأول – تعريف الغفلة في اللغة والاصطلاح

تمـــهيـــد

للوقوف على تعريف الغفلة وكيفية حدوثها؛ يحسن أن نقدِّم لذلك بعرض موجز لتشريح القلب وبيان وظيفته الحسية ثم مقارنتها بالوظيفة المعنوية.

أولًا – تشريح القلب:

القلب عبارة عن عضلة مجوفة تقع في التجويف الصدري، تميل نحو اليسار، مكونة من أربع غرف، علويتين تسميان الأذينين ١،٢، وسفليتين هما البطينين ٣، ٤، وبينهما جدارٌ فاصل٥[١]. وقد ورد لفظ القلب في القرآن الكريم مفرد ومثنى وجمع مائة واثنان وثلاثون مرة[٢].

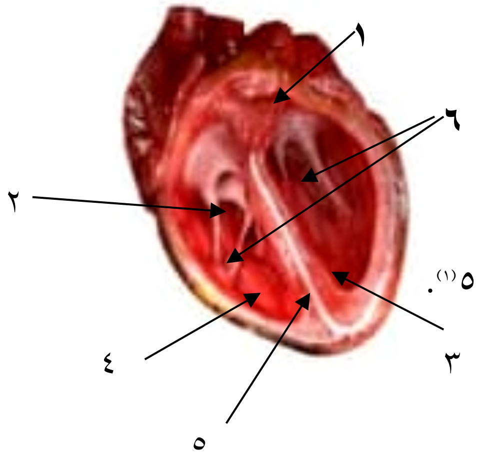

قطاع طولي للقلب

ثانيًا – وظائف القلب:

كل عضو في جسم الإنسان له وظيفة وعمل يقوم به، وتتكامل كل الأعضاء للقيام بكل الوظائف الحيوية عند الإنسان[٣]، والقلب له وظيفتان، وظيفة حسية ووظيفة معنوية، والأولى بها قوام الجسد، وإن توقف القلب عن القيام بها انتهت حياة العبد الجسدية[٤]، والثانية بها قوام الروح..

---

(١) علم التشريح ووظائف الأعضاء ، ps:www.etelmdelivery.com

(٢) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، عبد الباقي (ص: ٥٤٩-٥١٥)

(٣) ينظر: علم وظائف الأعضاء، صباح ناصر العلوجي (ص: ٢١)

(٤) ينظر: المرجع السابق (ص:١٠٧)

(أ) وظيفة القلب الحسية:

١/ استقبال الدم المختزل من جميع أجزاء الجسم عبر الوريد الأجوف العلوي الذي يصبُّ في الأذين الأيمن، ثم يمرِّره الأذين إلى البطين الأيمن الذي ينقبض فيدفع الدم إلى الرئتين ليتزوَّد بالأكسجين وهو ما يسمى بالدورة الدموية الصغرى.

٢/ يعود الدم المؤكسد من الرئتين إلى الأذين الأيسر عبر الأوردة الرئوية ويمرِّره الأذين للبطين الأيسر والذي ينقبض بصورة أكبر فيدفع بالدم إلى جميع أنحاء الجسم. (الدورة الدموية الكبرى)، وتتحكَّم صمامات القلب ٦ في المسار الصحيح للدم في اتجاهٍ واحدٍ، فلا يرتدَّ عند انبساط القلب أو انقباضه[١].

(ب) الوظيفة المعنوية للقلب:

تتلخص وظيفة القلب المعنوية في أمرين:

الأول: معرفة الحق بدليله وتمييزه عن الباطل. الثاني: محبة الحق وإرادته والعمل به.

يؤدِّي القلب هذه الوظيفة من خلال قوة الفكر، وقوة الإرادة والحب، اللتين أودعَهُما فيه الخالق سبحانه[٢]، فقوة الفكر يمثِّلها الجزء العلوي الذي يستقبل الحقائق والمعلومات من خلال الحواس ويفرزها للتفريق بين الحق والباطل، وهو ما يمثِّل (دورة علمية نظرية صغرى). وقوة الإرادة يمثِّلها الجزء السفلي الذي يترجِّم هذه الحقائق والعلوم إلى أعمال وتطبيقات فيرسل أوامره للجوارح بما يمثِّل (دورة عملية تطبيقية كبرى)، فيؤدِّي القلب وظيفته الحسية بالتعاون مع الرئتين، أما الوظيفة المعنوية فيؤدِّيها منفرداً، ونخلُص من ذلك إلى:

- أن أهمية القلب معنوياً أكبر من أهميته الحسِّية.
- أن الحياة الروحية مرهونة بسلامة القلب وصحته، للقيام بدوره المعنوي الذي هو عماد الحياة الحقَّة.

---

(١) الشامل في الصناعة الطبية، ابن النفيس (١/ ٨٨)

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، ابن القيم (١/ ٢٤)

ولهذا كانت الحياة الحقيقية والمعتبرة للإنسان هي قيام قلبه بالوظيفية المعنوية لا الحسية، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ الأنعام: ١٢٢، قال الطبري في تفسيرها: "... فقال لهم: أطاعة من كان ميتًا، يقول: من كان كافرًا؟ فجعله جل ثناؤه لانصرافه عن طاعته، وجهله بتوحيده وشرائع دينه، وتركه الأخذ بنصيبه من العمل لله بما يؤدِّيه إلى نجاته، بمنزلة "الميت" الذي لا ينفع نفسَه بنافعة، ولا يدفع عنها من مكروه نازلة، (فأحييناه) يقول: فهديناه للإسلام، فأنعشناه، فصار يعرف مضارّ نفسه ومنافعها، ويعمل في خلاصها من سَخَط الله وعقابه في معاده. فجعل إبصاره الحق بعد عَمَاه عنه، ومعرفته بوحدانيته وشرائع دينه بعد جهله بذلك، حياةً، وضياءً يستضيء به، فيمشي على قصد السبيل، ومنهج الطريق في الناس"[1].

وقد وضح من تفسير الآية أن عمل القلب شمل الجانب العلمي، وهو:"فصار يعرفُ مضارّ نفسه ومنافعها" ، وشمل الجانب العملي، وهو : "ويعمل في خلاصها من سَخَط الله وعقابه في معاده".

(ج) المقارنة بين الوظيفة الحسية والوظيفة المعنوية للقلب:

بالإضافة إلى أن الوظيفتين تتوقَّفُ عليهما حياة العبد الحسية والمعنوية؛ كذلك هناك تشابه كبير بين كيفية وطريقة القيام بهاتين الوظيفتين، فاستقبال المعلومات من الجوارح والذي أسميناه "دورة نظرية صغرى"، فيه مطابقة للدورة الدموية الصغرى، فكلاهما استقبال، وفي كليهما تتمُّ المعالجة للوارد، فأما في الدورة الدموية فيتمُّ إرسال الدم للرئتين لتخليصه من ثاني أكسيد الكربون وتزويده بالأكسجين ثم استقباله مرة أخرى استعدادًا لإرساله لكافة أنحاء الجسد، وفي الدورة المعنوية يتمُّ التعرُّف على الوارد من الجوارح وتصنيفه، وترجمته إلى حقائق ومعلومات ومعارف، وفي الدورة الدموية الكبرى يتم إرسال الدم المؤكْسَد الى سائر الجسد، ويقابله في الدورة المعنوية للقلب إرسال الأوامر والتوجيهات إلى الجوارح وفق الوارد الذي أتى منها، ويحدِّد نوع الأوامر مدى صِحَّة القلب وسلامته.

---

(١) جامع البيان، الطبري (١٢/ ٨٨-٨٩)

وقد ذكر الله تعالى في كتابه العزيز أن الجوارح وعلى رأسها السمع والبصر هما وسائل وآلات التعلم، كما في قوله تعال: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ النحل: ٧٨، قال الواحدي: "والمعنى: خلق لكم الحواس التي بها تعلمون وتقفون على ما تجهلون"(١)، وقال الزمخشري:"...ومعناه: غير عالمين شيئاً من حق المنعِم الذي خلقكم في البطون، وسوّاكم وصوّركم، ثم أخرجكم من الضيق إلى السعة. وقوله: (وَجَعَلَ لَكُمُ) معناه: وما ركَّب فيكم هذه الأشياء إلا آلات لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه، واجتلاب العلم والعمل به، من شكر المنعم وعبادته، والقيام بحقوقه، والترقِّي إلى ما يسعدكم"(٢).

وهذا التشـابه الكبير، في الأهمية وفي الكيفية التي يقوم بها القلب في أداء الوظيفتين يشـير إلى أنه بمثابة الملك على سائر الجوارح، وهذا ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه: "...أَلا وَإِنَّ فِى الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِىَ الْقَلْبُ"(٣).

أما الفائدة التي نجنيها من هذا العرض المفصَّل لوظائف القلب والمقارنة بينهما، تتمثل في أمرين:

أولهما: الاقتداء بأسلوب القرآن الكريم في إلباس الأمور المعنوية ثوب الحسي، لتقريب الفهم وقوة الإيضاح للمعاني، كما هو كثيرٌ في ضرب الأمثال القرآنية، مثل قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖ﴾ إبراهيم: ١٨، وقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ إبراهيم: ٢٤، وغيرها، وفي ذلك تبرُّكٌ بموافقة الوحي، وتوابع ذلك..

ثانيهما: التوصُّل إلى الفهم الدقيق لمرض الغفلة وعلاجها، فالمعتاد عليه في الدراسات الطبية أن يسبق الحديث عن المرض بيان تشريح ووظيفة العضو أو الجهاز الذي وقع عليه المرض.

---

(١) التفسير البسيط (١٣/ ١٥٣)

(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٢/ ٦٤٢)

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه (١/ ١٠١) حديث رقم (٥٢)/ مسلم في صحيحه كتاب: المساقاة، باب: أخذ الحلال الطيب وترك الشبهات، (٣/ ١٢١٩) حديث رقم (١٥٩٩)

المطلب الأول – تعريف الغفلة في اللغة والاصطلاح

أولًا – تعريف الغفلة في اللغة

قال ابن فارس: (غَفَلَ) الْغَيْنُ وَالْفَاءُ وَاللَّامُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَرْكِ الشَّيْءِ سَهْوًا، وَرُبَّمَا كَانَ عَنْ عَمْدٍ. مِنْ ذَلِكَ: غَفَلْتُ عَنِ الشَّيْءِ غَفْلَةً وَغُفُولًا، وَذَلِكَ إِذَا تَرَكْتَهُ سَاهِيًا. وَأَغْفَلْتُهُ، إِذَا تَرَكْتَهُ عَلَى ذِكْرٍ مِنْكَ لَهُ. وَيَقُولُونَ لِكُلِّ مَا لَا مَعْلَمَ لَهُ: غُفْلٌ، كَأَنَّهُ غُفِلَ عَنْهُ. فَيَقُولُونَ: أَرْضٌ غُفْلٌ: لَا عَلَمَ بِهَا. وَنَاقَةٌ غُفْلٌ: لَا سِمَةَ عَلَيْهَا. وَرَجُلٌ غُفْلٌ: لَمْ يُجَرِّبِ الْأُمُورَ[1].

وقال الخليل بن أحمد: "غفل: يغفل غفلة وغُفُولاً. والتَّغافُلُ: التَّعَمُّدُ: والتَّغَفُّلُ: ختل عن غَفْلةٍ. وأَغفَلْتَ الشيءَ: تركته غُفْلاً وأنت له ذاكر. والمُغَفَّلُ: من لا فطنة له. والغُفْل: المُقَيَّدُ لا يرجى خَيْرُهُ ولا يخشى شرهُ، وقد اغتَفَلَ، والجميعُ الأغفالُ"[2].

وجاء زيادة على ذلك في كتب المعاجم:(غفل) الشيء كتمه. وأَغْفَلْتُ الشَّيْءَ إغْفَالًا تَرَكْتُهُ إهْمَالًا مِنْ غَيْرِ نِسْيَانٍ، وَيَقُولُونَ لِكُلِّ مَا لَا مَعْلَمَ لَهُ: غُفْلٌ، كَأَنَّهُ غُفِلَ عَنْهُ. أَرْضٌ غُفْلٌ: لَا عَلَمَ بِهَا، أو أرضٌ لم تمطر. وغفَل الرجلُ: نام. والأغفالُ: المَواتُ. والفعل "غَفَلَ" لَهُ ثَلَاثَةُ مَصَادِرَ "غُفُولٌ" وَهُوَ أَعَمُّهَا، وَ"غَفْلَةٌ" وِزَانُ تَمْرَةٍ، وَ"غَفَلٍ" وِزَانُ سَبَبٍ[3]. و(غَفَلَ) عَن الشَّيْء ستره، فَهُوَ غافل غفُول وغِفْل"[4]. و"أغفل: أبطل، ألغى، أزال، غُفْل: أبله، أحمق، أخرق. وغُفَلة: إهمالٌ لمشاغله وتقصير فيها وتهاون. غَفلة: طيشٌ، نزقٌ، عبثٌ. غَفْلَة: بلاهة، غباوة، غَفْلَة: خطأ فاحش لا يقره العقل السليم. غَفْلَة: غِرّ، غُمر، مغفّل، من يسهل خداعه، غفّال: مُهْمِل"[5].

---

(١) مقاييس اللغة (٤/ ٣٨٦)

(٢) العين (٤/ ٤١٩)

(٣) ينظر: المغرب في ترتيب المعرب، المطرزي (ص: ٣٤٢)/ المصباح المنير، الحموي (٢/ ٤٥٠)

(٤) المعجم الوسيط، الزيات وآخرون (٢/ ٦٥٧)

(٥) تكملة المعاجم العربية، دوزي (٧/ ٤١٨)

وقال الراغب: الغَفْلَةُ: سهوٌ يعتري الإنسان من قلّة التّحفّظ والتّيقّظ، يقال: غَفَلَ فهو غَافِلٌ "[1].

وخلاصة هذه المعطيات المعجمية أن الغفلة تعود إلى النسيان، والذهول عن الشيء، والسهو، والإهمال، واللامبالاة، وعدم الفطنة، وعدم التمييز، والسذاجة، والستر والتغطية والإزالة.

وبناء على ما ورد من معنى الغفلة ومشتقاتها نستطيع القول بأن:

- من ترك باباً مفتوحًا المطلوب أن يكون مغلقًا بإزالته، أو نسيانه، أو لقلة الاكتراث به نقول: غفل عنه.

- ومن أغلق بابًا حقَّه أن يُفْتَح فغطَّاه وستره ناسيًا أو مهملًا نقول: أغفله. وفي الحالين الفاعل للفتح والإغلاق بعكس المطلوب نقول عنه: أخرق، أحمق، غبي، غِرٌ، أبله، غير مُمَيِّز.

ثانيًا – الفرق بين الغفلة والنسيان والسهو:

الغفلة هي عدم التفطُّن للشـئ وعدم عقليته بالفعل، سـواء بقيت صـورته أو معناه في الخيال، أو الذكر؛ أو انمحت عن أحدهما. وهي أعمَّ من النسـيان، لأنه عبارة عن الغفلة عن الشـئ مع انمحاء صـورته أو معناه عن الخيال أو الذكر بالكلية، ولذلك يحتاج الناسي إلى تَجَشُّـمِ كسـبٍ جديدٍ، وكلفة في تحصـيله ثانياً"[2]. والغفلة تركٌ باختيار الغافل، والنسـيان ترك بغير اختياره، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ الأعراف: ٢٠٥، ولم يقل: (ولا تكن من الناسـين) لأن النسـيان لا يدخل تحت التكليف، فلا يُنْهَى عنه، والذكر: هو التخلص من الغفلة والنسيان[3]، قال تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ الكهف: ٢٤

أما الفرق بين الغفلة والسـهو: فالغفلة تكون عن فعل الغير، تقول: كنت غافلًا عما كان من فلان، ولا يجوز أن يَسهى عن فعل الغير[4].

والخلاصة هي أن الغفلة أعمّ من النسان، وأعمّ من السهو..

---

(١) المفردات في غريب القرآن (ص: ٦٠٩)

(٢) معجم الفروق اللغوية، العسكري (ص: ٣٨٨-٣٨٩)

(٣) مدارج السالكين، ابن القيم (٢/ ٤٠٥)

(٤) معجم الفروق اللغوية، العسكري (ص: ٣٨٨)

ثالثًا – تعريف الغفلة في الاصطلاح:

عرَّفها جمعٌ من العلماء المتقدِّمين والمتأخِّرين في ثنايا تفسيرهم لآيات الغفلة، ومن ذلك:

- عرفها أبو سهل التستري بقوله: "الغفلة إبطال الوقت بالبطالة"[1].

- عرفها أبو العباس الصاوي بقوله: "الغفلة هي ترك الشيء مع التمكُّن من العلم به"[2].

- وأورد السلمي أربعة تعريفات في تفسيره، نسب ثلاثةً منها لقائليها -ولم أجدها في مظانها-، وواحدًا لم ينسبه، فقال: عرفها الجوزجاني فقال: " الغفلة هي طول الأمل"، وعرفها النوري فقال:"الغفلة سكون السِّر إلى شيءٍ سوى الحق"، وعرفها ابن الجلاء بقوله: "الغفلة ما يورثك الفترة". ثم قال: وقال بعضهم: "الغفلة عقوبة القلب، وهوحجابه عن المنعم"[3].

- وعرفها الشنقيطي فقال: "والغفلةُ هي: الغفلةُ عن الشيءِ وخروجُه عن الذهنِ للاشتغالِ بغيرِه"[4].

وعرفها أبو زهرة فقال: "والغفلة هي: عدم التَّنبُّه إلى ما يقع، وهو مأخوذ من الأرض الغَفْل، وهي التي لا معالم فيها، ولا بناء"[5].

- أما الشعراوي فقد ذكر لها تعريفان:

الأول: الغفلة هي نسيانٌ طارئ على ما لا يصح أن يُنسى.

الثاني: الغفلة: هي ذهاب المعنى عن النفس، ثم قال: فما دام المعنى موجوداً في النفس، فاليقظة توجد، والغفلة تذهب. واليقظة هي استقرار المعنى في النفس[6].

---

(١) تفسير التستري (ص: ٩٧)

(٢) حاشية الصاوي على تفسير الجلالين (ص: ١٠٥)

(٣) حقائق التفسير (١/ ٤١٠)

(٤) العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير (٢/ ٣٠٠)

(٥) زهرة التفاسير (٢/ ٤٣١)

(٦) تفسير الشعراوي (٥/ ٢٥٩)

وعرفها د. عبد الله خضر بقوله: "والغفلة هي ضِدُّ العلم التام، وإن لم تكن ضدًّا لأصل العلم"(١). والملاحظ على هذه التعريفات أنها تطابق التعريف اللغوي مع الاختلاف في التعبير، وأن بعضها هو أعراضٌ للغفلة أو أثرٌ ناتج عن الغفلة، وليس هو حقيقة الغفلة، كتعريف التستري، والبعض جعلها هي مطلق الحجاب عن الله تعالى، والبعض جعلها كلها إرادية دون تفصيل، وليس الأمر كذلك، والبعض جعلها خاصة بالجانب العلمي، دون العملي...

ويغلب على ظني أن كلَّ أو جلَّ من عرَّف الغفلة فإنه يدور حول هذه التعريفات، لفظًا أو معنىً، لأني وجدتها مكرَّرة في الكتب عشرات المرات، عبر نقل المتأخِّر من المتقدِّم. وعلى ذلك اكتفيت بها، وهو ما أكَّد لي أن الموضوع يحتاج إلى دراسة جديدة، وعرض من زوايا أخرى، ووضع تعريف جامع مانع، ولو بالتمهيد له، ثم يُصوِّب، ويتمِّم، ويُكمِّل مَنْ يأتي من بعدي.

أما التعريف الذي بدا لي أنه الأقرب، فهو تعريف ابن القيم حيث قال : "الْغَفْلَةَ هِيَ نَوْمُ الْقَلْبِ عَنْ طَلَبِ هذه الحَيَاةِ". وكان قد وصف الحياة المشار إليها في تعريف الغفلة فقال: حَيَاةٍ، لَا تُدْرِكُهَا العِبَارَةُ، وَلَا يَنَالُهَا التَّوَهُّمُ، ولَا يُطَابِقُ فِيها اللَّفظُ لِمَعنَاهُ أَلْبَتَّةَ، والذِي يُشَارُ بِهِ إِلَيهَا حياةُ الُمحِبِّ معَ حَبِيبِهِ الذِي لَا قِوَامَ لِقَلبِهِ وَرُوحِهِ وَحَيَاتِهِ إِلَّا بِهِ، وَلَا غِنًى لَهُ عَنهُ طَرفَةَ عَينٍ....."(٢).

ويمكن اختصار تعريفه في: **الغفلة هي نوم القلب عن طلب الحياة مع الله تعالى.**

وقد تميَّز هذا التعريف عن التعريفات السابقة بأنه ذكر جوهر العلة، والمعبَّر عنها بـ(نومة القلب) وهو ما يعني تعطُّل الوظيفة المعنوية للقلب، لأن النائم لا يُدْرك ولا يتحرَّك، وتميَّز ببيان الوظيفة المعنوية للقلب، وهي: (طلب الحياة مع الله تعالى) وتبقى ضرورة معرفة كيف ينام القلب؟ ولماذا ينام؟ ومن الذي يُغْرِيه للنوم، أو يهيئ له الظروف المناسبة للنوم؟

---

(١) الكفاية في التفسير بالمأثور والدراية (٢/ ٥٢)

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٢٦٧)

ومع أن تعريف ابن القيم هو الأكثر وضوحًا وإقناعًا؛ إلا أني اجتهدت في وضع تعريفٍ أدقَّ لها، مبنيّ على النصوص التي وردت عن الغفلة، ومستفيد من تشريح القلب ووظيفته المعنوية التي سبق بيانها ، فوصلت بتوفيق الله إلى التعريف الآتي:

الغفلة مرضٌ معنويٌ يصيب القلب، يحول بينه وبين الانتفاع بالعلم والموعظة، ويؤدِّي إلى تشرِّبه بالشبهات، وضعفه أمام الشهوات، فيَفْقِدُ قوَّته ومناعته ضد الأمراض، ويُحْرَمُ لذة الحياة مع الله.

شرح التعريف:

مرض: نقيض الصحة والسلامة وهو خروج عن حالة الاعتدال الطبيعي للقلب لفساد يعرض له يؤثر سلباً في إدراكه وحركته الطبيعية. ومرض القلب هو نوع فساد يحصل له يفسد به تصوره للحق وإرادته له (يؤدي إلى إحداث خلل في وظيفته) فإما أن يتعطَّل بالكلية عن أدائها وإما أن يؤديها بضعف[1].

معنوي: هناك عدة وجوه للإختلاف بين المرض الحسي والمرض المعنوي، فالأمراض الحسية تصيب كل البدن، وتُحَسُّ وتُرَى، وتتفاوت في درجة خطورتها فمنها الخفيف ومنها الخطير، وتؤدي إلى الضعف في تحقيق المصالح الدنيوية وتلبية الحاجات الجسدية، بعضها كسبي ويمكن الوقاية منه وبعضها خلقي ومنها وراثي، منها المعدي وتختلف في طريقة العدوى، ومنها غير المعدي، ونهايتها مفارقة الروح للجسد (موت الجسد). أما الأمراض المعنوية فتصيب القلب فقط، وآثارها لا تُحَسُّ ولا تُرَى إلا للخاصة، وكلها خطيرة ولكن تتفاوت في درجة خطورتها، وتُضعف القلب في تحقيق المصالح الدينية وتلبية الحاجات الروحية، وكلها كسبية ويمكن الوقاية منها، وليس فيها مرضًا وراثيًا، وكلها مُعْدِية ويحدِّدُ انتقالها للغير وعدمه مدى مناعة قلب الغير وقوَّته المعنوية، ونهايتها هي مفارقة الروح للقلب، فيصير أعمىً وميِّتًا، قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ الحج: ٤٦.

---

(١) يُنظر: إغاثة اللهفان، ابن القيم (١/ ١٦)

يصيب: أي أنه عارضٌ وناشيء، وهذا يعني أن الأصل في القلب الصحة والسلامة وتحدث النجاة بالمحافظة عليه كما في قوله تعالى:﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ الشعراء: ٨٨– ٨٩، وأصلية سلامة القلب من هدايات قوله تعالى:﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗا﴾ الأعراف: ٥٨، حيث ذكر القلب السليم بـ(وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ) جملة إسمية، والمريض بالفعل (خَبُثَ) في إشارة إلى أنه كان طيباً ثم طرأ عليه الخبث، أما النفس فقد ارتبط أطول قسم في القرآن بتزكيتها في قوله:﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ الشمس: ٩، وارتبط بها الفلاح أيضاً في قوله:﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ الأعلى: ١٤، وهذا يعني أن الفلاح لا يحدث بدون تزكية للنفس، لأنها في أصلها معوجَّة وغير مؤهَّلة لتحقيق النجاة.

القلب: يعني أن الغفلة لا يمكن أن تحدث للجوارح، أما معاصي الجوارح فهي من آثار إصابة القلب، وهي تابعة له مطيعة لأمره فقط. وفي الحديث: "...ألا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ القَلْبُ"[1]. لأن القلب إن كان سليما كانت أوامره للجوارح فِعل المأمور وترك المحظور شرعًا، وتختل الأوامر والنواهي بحسب خروجه عن حالة السلامة، حتى يصل إلى أسوأ مستوى وهو النهي عن المعروف والأمر بالمنكر لذاته ولغيره، كما هو حال المنافقين في قوله تعالى:﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ التوبة: ٦٧.

يحول بينه وبين الانتفاع: أي أن الغفلة لا تمنع ورود العلم والموعظة على القلب، ولكن تمنع انتفاع القلب بهما أو بأحدهما، منعاً كلياً أو جزئياً. فالعلم والموعظة يثمران تحقيق الخشية من الله والاستجابة له، وهذا لبُّ منفعتهما الحقيقية، وشاهده قوله تعالى:﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ فاطر: ٢٨، وقوله سبحانه:﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا﴾ النساء: ٦٦.

بالعلم: الْعلم هُوَ إِدْرَاك الشَّيْء على مَا هُوَ بِهِ.أو هو ملكه يقتدر بهَا على إِدْرَاك الجزئيات[2].

(١) سبق تخريجه (ص: ١٠)

(٢) الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة، السنيكي (ص: ٦٦)

وعرَّف ابن القيم العلم بأنه: نقل صورة المعلوم من الخارج، وإثباتها في النفس. فَإِن كَانَ الثَّابِت فِي النَّفس مطابقاً لْلحَقِيقَة فِي نَفسهَا فَهُوَ علمٌ صَحِيح، وإن لم تكن مطابقة؛ فغير صحيح. ثم قال: والعلوم باعتبار منفعتها نوعان:

الأول: علمٌ تكملُ النفس بإدراكه والعلمُ به، وهو العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله، وعْدِه ووعيده، وأمره ونهيه.

الثاني: علمٌ لا يحصلُ للنفسِ به كمال، وهو كلُّ علمٍ لا يضر الجهل به، فإنه لا ينفع العلم به[1].

والمقصود في التعريف هو النوع الأول، وهذا ما يشير إلى أن الكمال البشري يتناسب عكسيًّا مع الغفلة، فأكمل الناس هو صاحب اليقظة الكاملة، وأنقص الناس هو صاحب الغفلة الكاملة.

الموعظة: هي الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب والتذكير بالعواقب[2].

ويؤدِّي: لأن الأصل في القلب أن يكون صادًّا للشبهة، فالغفلة تُبْطل فيه هذا الدور أو تضعفه.

إلى تشربه بالشبهات: الشبهة في اللغة: الإلتباس والمشابهة، والجمع شبه وشبهات، وفي الشرع: ما التبس أمره حتى لا يمكن القطع فيه أحلالٌ هو أم حرام، وحقٌّ هو أم باطل[3].

وضعفه: والأصل في القلب السليم أن يكون قوياً ومختاراً، لا مُسَيَّراً ولا مُسْتَعبداً للنفس والشيطان.

أمام الشهوات: الشَّهْوَة هي الرَّغْبَة الشَّدِيدَة، وَالْقُوَّة النفسانية الراغبة فِيمَا يُشْتَهى من الملذات المادية والجمع: شهوات وأشهية وشهى وَفِي التَّنْزِيل: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾ آل عمران: ١٤[4].

فيَفْقِدُ: إما أن يكون فقدًا كاملا أو جزئي، بحسب درجة الإصابة، كما هو الحال في الأمراض الحسية.

---

(١) الفوائد، ابن القيم (ص: ٨٤)

(٢) المعجم الوسيط (٢/ ١٠٤٣)

(٣) معجم لغة الفقهاء، قلعجي- قنيبي (ص: ٢٥٧) / التعريفات، الجرجاني (ص: ١٢٤)

(٤) المعجم الوسيط (١/ ٤٩٨)

قوَّته: للقلب قوتان وهبيات خُلِق بها ، هما قوة الفكر وقوة الإرادة، والأولى تتغذى وتتقوَّى بالعلم، والثانية تتغذى وتتقوَّى بالموعظة القولية أو المستفادة من المواقف.

ومناعته ضد الأمراض: لأن الأمراض التي تصيب القلب إما أمراض شبهات أو أمراض شهوات، فلمَّا يفقد قوَّته تنقص مناعته ضد الأمراض بحسب النقص الحاصل في قوَّتيه أو أحدهما.

ويُحْرَمُ لذة الحياة مع الله: الحياة مع الله تعالى تكون بالقلب لا بالجسد، ولها لذَّة معنوية تتناسب مع درجة الحياة التي تحدِّدها حالة القلب من حيث السلامة والقوة، فيفوت على القلب الغافل من لذة الحياة مع الله بقدر غفلته، ويُحرَم الشعور باللذة بقدر نقص حياته مع الله تعالى.

وأصدق تعبير عن هذا التعريف للغفلة هو مجموع حديثين للنبي صلى الله عليه وسلم:

الحديث الأول – قوله صلى الله عليه وسلم: **"تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نَكَتَتْ فِيهِ نُكْتَةً سَوْدَاءَ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَتْ لَهُ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى يَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ: أَبْيَضُ مِثْلُ الصَّفَا، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مِرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ"**(1).

ولا يزال القلب يشربُ كل فتنة تعرض عليه حتى يسودَّ وينتكس، وعندها تضاف إليه علَّتان:

الأولى: يشتبه عليه المعروف بالمنكر، فلا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا، وربما استحكم عليه هذا المرض حتى يعتقد المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا.

الثاني: تحكيمه هواه على ما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وانقياده للهوى واتباعه له.

والفتن التى تعرض على القلوب هى فتن الشهوات وفتن الشبهات، والأولى تُوجِب فساد القصد والإرادة، والثانية تُوجِب فساد العلم والاعتقاد(2).

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان أنَّ الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً (١/ ١٢٨) برقم (١٤٤)

(٢) ينظر: إغاثة اللهفان، ابن القيم (١/ ١٢)/ كوثر المعاني الدراري، الجكني الشنقيطي (٧/ ٤٥٣)

فالشـبهات والشـهوات الواردة على القلب إما أن تجد الباب مفتوحاً فتدخل، وهذه ما أُشْرِبها القلب، وإما أن تجده مغلقاً فتُصَـدُّ، وهذه ما أنكرها. ويُفْهَمُ من ذلك أن مدخلي الشبهة والشهوة يجب أن يكونا مغلقين، فتركهما الغافل مفتوحَين لقلة اكتراثه، أو ضعف فطنته وإهماله. ويعضِّـد هذا الفهم المستنبط من الحديث قوله تعالى:﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾ البقرة: ٩٣، قال القرطبي في تفسيرها: "قَوْلُه:﴿وَأُشْرِبُوا۟﴾ أَي: حُبُّ العِجل. وَالمَعنَى: جُعِلَت قُلُوبُهُم تَشْرَبُهُ، وهذا تَشْبِيهٌ ومجازٌ عبارةٌ عن تمكُّنِ أمرِ العجلِ في قُلُوبهم. وفي الحديث:(تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ.)"[١].

الحديث الثاني – قوله صلى الله عليه وسلم:"مَثَلُ ما بَعثَنِي اللهُ بهِ منَ الهدَى والعِلمِ، كَمَثَلِ الغيثِ الكثيرِ أصابَ أرضاً، فكان منها نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ الماء، فأنْبتت الكلأ والعُشْبَ الكثيرَ، وكانت منها أجادب، أمسَكتِ الماء، فَنَفَعَ اللهُ بها النَّاس، فَشَرِبوا وسَقَوا وزَرَعوا، وأصابت منها طائفةً أخرى، إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمْسكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كلأً، فذلكَ مثلُ مَنْ فَقُهَ في دين اللهَّ، ونفعَهُ ما بَعثَنِي اللهُ به فعَلِمَ وعلَّمَ، ومَثَلُ مَنْ لم يَرفَعْ بذلك رأْساً، ولم يَقبَلْ هُدَى اللهَّ الذي أُرسِلتُ بِهِ[٢].

والمراد بالهدى في الحديث: القرآن، مصدر بمعنى الفاعل، قال تعالى في وصف القرآن:﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ البقرة: ٢، وقال:﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ الإسراء: ٩، والعلم هو ما عدا القرآن من الأحكام التي دلَّت عليها الأحاديث[٣]. وأورد ابن كثير هذا الحديث عند تفسير قوله تعالى:﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ...﴾ الأعراف: ٥٨[٤]، بما يشير إلى تعاضد معناهما، ويُفْهَمُ من كليهما أن مدخل الهُدى يجب أن يكون مفتوحًا ليدخل العلم والموعظة في القلب فيُغذِّيانه وينقِّيانه من الآفات والأسقام الواردة، فأغلقهما الغافل تعمداً من قلة اكتراثه.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٣١)

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: العلم، باب: فضل من عَلِمَ وعَلَّم (١/ ٢٧) برقم (٧٩)

(٣) الكوثر الجاري إلى رياض أحاديث البخاري، الكوراني (١/ ١٨١)

(٤) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٨٧)

المطلب الثاني: ورود الغفلة في القرآن الكريم ودلالاته

أولًا - ورود الغفلة في القرآن الكريم:

وردت مادة (غفل) في القرآن الكريم خمسًا وثلاثين مرة، في إحدى وعشرين سورة ، في خمسٍ وثلاثين آية، خمسٌ وعشرون آية منها مكية، وعشر آيات مدنية، ولم ترد في سورة أو آية مختلفٌ في تصنيفها مكية أم مدنية، وقد جاءت المادة بثمان صيغ، على النحو التالي:

١/ (تَغۡفُلُونَ) وردت مرة واحدة في سورة النساء، قوله تعالى: ﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ النساء: ١٠٢، وسورة النساء مدنية، وهنا معناها: تسهون[١].

٢/ (أَغۡفَلۡنَا) وردت مرة واحدة، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا﴾ الكهف: ٢٨، وهي مكية.

٣/ (بِغَٰفِلٍ) وردت تسع مرات في ثلاث سور مكية، هي: الأنعام، هود، النمل، وسورتان مدنيتان، هما البقرة وتكررت فيها خمس مرات، وسورة آل عمران مرة واحدة، وكلها كانت تنفي الغفلة عن الله تعالى، ومنها قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ......وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ البقرة: ٧٤

- كل الصيغ (وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ) جاءت في القرآن المكي، وكل صيغ: (وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ) جاءت في القرآن المدني.

٤/ (غَٰفِلًا) وردت مرة واحدة في سورة إبراهيم، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ إبراهيم: ٤٢، وسورة إبراهيم مكية.

٥/ (غَٰفِلُونَ) وردت ست مرات، في ستِّ سور كلها مكية، وهي:

١ - الأنعام، قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾ الأنعام: ١٣١.

٢- يونس، قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴾ يونس: ٧.

٣- يوسف، قوله جل جلاله: ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴾ يوسف: ١٣.

٤- الروم، قوله جل وعلا: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ﴾ الروم: ٧.

---

(١) المفردات في غريب القرآن، الراغب (ص: ٦٠٩)

٥- سورة "يس"، قوله تعالى وتقدّس: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ﴾ يس: ٦.

٦- الأحقاف، قوله: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾ الأحقاف: ٥

- وردت نفس الصيغة معرَّفة (ٱلۡغَٰفِلُونَ) في سورتين، هما:

١- الأعراف في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ الأعراف: ١٧٩.

٢- النحل قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ النحل: ١٠٨.

والسورتان الأعراف والنحل مكيتان.

- ووردت الصيغة بلام التوكيد (لَغَٰفِلُونَ) في موضع واحد، وهو قوله تعالى: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ يونس: ٩٢، وسورة يونس مكية.

٦/ (غَٰفِلِينَ) تكررت أربع مرات في سورتين، هما:

١- الأعراف، وردت فيها ثلاث مرات.

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ الأعراف: ١٣٦.

الثانية: قوله: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ الأعراف: ١٤٦.

الثالثة: قوله جل جلاله: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ الأعراف: ١٧٢.

٢- سورة المؤمنون: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ﴾ المؤمنون: ١٧، والسورتان مكيتان.

- وردت نفس الصيغة مسبوقة بلام التوكيد (لَغَٰفِلِينَ) مرتين، في سورتين:

١- الأنعام، قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلۡكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيۡنِ مِن قَبۡلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾ الأنعام: ١٥٦.

٢- يونس قوله تعالى: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ إِن كُنَّا عَنۡ عِبَادَتِكُمۡ لَغَٰفِلِينَ﴾ يونس: ٢٩، والسورتان مكيتان.

- وردت الصيغة بالتعريف (ٱلۡغَٰفِلِينَ) في سورتين:

١- الأعراف، قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ الأعراف: ٢٠٥.

٢- يوسف، قوله: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ يوسف: ٣، وهي سورة مدنية.

٧/ (ٱلۡغَٰفِلَٰتِ) وردت مرة واحدة في سورة النور، في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ النور: ٢٣، وهنا الغافلات بمعنى: غافلات عن الفواحش [١].

٨/ (غَفۡلَةٖ) وردت خمس مرات، في أربع سور، هي:

١- مريم، قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ مريم: ٣٩.

- الأنبياء، وقد وردت فيها مرتين:

٢- في أولها قوله: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ﴾ الأنبياء: ١.

٣- في أواخرها، قوله سبحانه: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ الأنبياء: ٩٧.

٤- القصص، قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا﴾ القصص: ١٥.

٥- سورة "ق"، قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ ق: ٢٢ [٢].

---

(١) جامع البيان، الطبري (١٧/ ٢٢٦)

(٢) ينظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، عبد الباقي (ص: ٥٠٣)

ثانيًا - دلالات وهدايات من ورود الغفلة في القرآن الكريم:

موارد الهدايات من القرآن الكريم لا تقتصر على معاني المفردات ودلالة الآيات فقط، بل تشمل كثير من الجوانب التي يمكن أن تُفيد معاني وإشارات قد لا يُعَبَّر عنها باللفظ، ومن ذلك: المناسبات، وأحوال النزول، ومقاصد السور، بل.. وأسمائها[1].

ومن تلك الموارد المظنون وجود الهدايات فيها أو بها: كثافة ورود المعنى، أو المفردة، واشتقاقاتها التي وردت بها، وتوزِّعها في القرآن الكريم. ومن وجود مادة (غَفَلَ) في القرآن يمكننا السعي لاستنباط بعض الدلالات والإيماءات المحْتَمَلة، ومن ذلك:

- كثرة ورود مادة الغفلة في القرآن قد يشير إلى كثافة وجودها في الواقع، ويعضده قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ يونس: ٩٢

- ورود الغفلة في السور المكية والسور المدنية ربما يشير إلى أن الغفلة ليست موقوفة على من كفر وأعرض عن الإسلام، بل قد يصاب بها المؤمنون الذين يُخاطَبون بالقرآن المدني.

- الحديث عن الغفلة في السور المدنية ربما يدلُّ على أهمية تناول هذا الموضوع في تربية وتعليم المؤمنين، فهو موضوعٌ حاضر في المنهج الإسلامي القرآني، وينبغي أن يكون حاضرًا في الكتابة والبحث.

- ورود الغفلة في القرآن المكي أكثر من القرآن المدني ربما يفيد أن غفلة المؤمنين أقل وأخف وأبسط من غفلة غير المسلمين، وهذا مما يعزِّز ويُزهر من منزلة الإيمان.

- تَوزُّع مادة الغفلة في المصحف، ووجودها في الطوال والمئين والمثاني والمفصَّل ربما يُفْهَم منه احتمالية وجود الغفلة في جميع مراحل حياة الفرد ومسيرة الأمة، ويعضده قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فاطر: ٣٢، والشاهد من الآية وجود الأصناف الثلاثة في سائر عمر الأمة، مع اختلاف النِّسَب بينها بحسب أفضلية القرن.

---

(١) ينظر: الهدايات القرآنية دراسة تأصيلية، طه عابدين، يس قارئ، فخر الدين الزبير (ص: ٥٢١)

- أول ورود للغفلة في سورة البقرة، وكانت نفي الغفلة عن الله تعالى، مما يشير إلى أن الثناء على الله تعالى مقدَّم، ويعضده أن أول فاتحة في القرآن الكريم هي الثناء على الله تعالى في سورة الفاتحة[1].

- لم يرد نفي الغفلة بصيغة الفاعل إلا عن الله تعالى (وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ) وربما يشير ذلك إلى أنه لا يوجد من البشر من تُنْفَى عنه الغفلة بالكلية، وإن كَمُلَ في مقام البشرية.

- نُفِيتْ الغفلة عن الله تعالى في ست مواضع كلها مدنية باسم الله:(وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ) ثلاث مواضع منها نفي الغفلة عن فعل أهل الكتاب، وربما في ذلك تصبير وتطمين للمؤمنين على مواقف أهل الكتاب معهم. وفي موضع واحد نفي الغفلة عن فعل المسلمين، وربما يشير ذلك إلى أهمية تعزيز الرقابة عند المسلم.

- نُفِيتْ الغفلة عن الله تعالى في ثلاث سور، كلها مكية باسم "الرب"، مضافًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم:(وَمَا رَبُّكَ بِغَـٰفِلٍ) ويلمح في ذلك تسلية النبي صلى الله عليه وسلم، وبيان رعاية الله له، وتصبيره على إعراض وأذى الكفار والمشركين، ويعضده قوله تعالى:﴿ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ إبراهيم: ٤٦ – ٤٧.

- لم تنفَ الغفلة عن الله تعالى بغير اسمي (ٱللَّهَ)، و(الرب) وربما يشير ذلك إلى التلازم والترابط بين الاسمين، فتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، وتوحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية، لأن الموحِّد لله تعالى في ألوهيته مقرٌّ ضمنًا بأن الله واحد في ربوبيته، ومن أيقن بأن الله واحدٌ في ربوبيته؛ لزم أن يكون مقرًّا بأن الله واحدٌ في استحقاقه العبادة[2]، وقد يُستأنس به على أن الاسمين هما أصول الأسماء الحسنى، وبعضده اقتران الاسمين في سورة أم الكتاب، قال تعالى:﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ الفاتحة: ٢.

- الغفلة صفة ذم في حقِّ الخالق سبحانه مطلقًا، وفي حقِّ المخلوق غالبًا، ولذلك نفيت عن الله تعالى في مقام المدح، وأُثْبِتَت للمخلوق في مقام الذم والإشانة غالبًا.

---

(١) البرهان في علوم القرآن، الزركشي (١/ ٢٥٤)

(٢) ينظر: شرح الأصول الثلاثة، محمد بن عبد الوهاب (١/ ٣٤)

- سورة البقرة احتوت على خمسٍ مواضع من صيغة نفي الغفلة عن الله، أربع منها نفي الغفلة عما يعمل أهل الكتاب، وواحدة نفي الغفلة عن عمل المؤمنين، وهذا قد يعزِّز من مقصد السورة، وهو: إقامة الدليل على أن الكتاب هدى ليُتَّبَع في كل حال، وأعظم ما يهدي إليه الإيمان بالغيب(1). وهذا التعزيز من جانبين، أولهما: إثبات الكمال لمنزل الكتاب بنفي الغفلة عنه سبحانه، وثانيهما: تحذير أهل الكتاب، لأنهم يصدُّون عن القرآن، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ فصلت: ٢٦، وتحذير للمؤمنين من الاستجابة لصد أهل الكتاب، وذلك بذكر إحاطة الله تعالى بجميع أعمالهم، ويعضده قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ﴾ آل عمران: ١٠٠

- وردت الغفلة مفيدة مدحًا مرة واحدة فقط، كانت في وصف المؤمنات في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ النور: ٢٣، فهنا معناها: غافلات عن الفواحش(2)، وربما يُلمِح ذلك إلى عِزَّة وندرة هذه الصفة عند النساء في الواقع، وكذلك ربما يشير إلى قلة استعمال مفردة "الغفلة" كصفة مدح وكمال عمومًا.

- الموضع الوحيد الذي وُصِف فيه النبي صلى الله عليه وسلم بالغفلة، كانت الغفلة فيه ليست للذم، وهي قوله تعالى: ﴿نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ يوسف: ٣، أي: غافلًا عن قصة يوسف وإخوته، لم تعلمها حتى أتيناك بها ودللناك عليها(3).

- عدم وجود الغفلة باسم الفاعل المفرد للمخلوق (غافل) ربما يشر إلى ندرة وجود غافل واحد في وسط غير غافل، أي: يقظ، أو بمعنى آخر يشير إلى الوجود الجماعي للغفلة في الواقع.

- كل السور التي وردت فيها الغفلة مسبوقة بحرف الظرفية: (فِي غَفۡلَةٖ) هي سور مكية، مما قد يلمح إلى أن الغفلة لا تكون ظرفًا مكانيًا للمؤمن، ويعضِّده أن كل الآيات جاءت عن الكفار.

---

(١) ينظر: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي (٢/ ٩)

(٢) جامع البيان، الطبري (١٧/ ٢٢٦)

(٣) ينظر: بحر العلوم، السمرقندي (٢/ ١٧٩)/ البرهان في علوم القرآن، الحوفي (ص: ٤٩)

- ثلاثة مواضع من أربعة ذكرت فيها الغفلة بالمصدر (غَفْلَةٍ)؛ تشير إلى الغفلة عن الآخرة، وربما يفيد ذلك أن الغفلة عن المعاد نتيجة غفلات سابقة لها، وأنها غفلة مستحكمة، لدلالة الصيغة على المبالغة(١).

- تعدُّد الصيغ التي وردت بها الغفلة نكرة، معرفة، مؤكَّدة، اسم، مصدر، اسم فاعل، قد تشير إلى تفاوت الغفلة في نوعها وقوَّتها لدى الغافلين.

- نُسِبَ فعل الغفلة إلى الله تعالى في موضع واحد، هو قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ الكهف: ٢٨، وفي ذلك إشارة إلى أن الغفلة بقدرة الله وقدَرِه وعظمته، بدلالة الضمير (نا) الدال على العظمة، ولكنها بكسب العبد بدلالة (وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا)(٢).

- أكثر تكرُّر لورد الغفلة في سور القرآن في سورتي البقرة والأعراف، حيث وردت فيهما خمس مرات.

- تميَّز ورود الغفلة في سورة البقرة بأن كل المواضع نفي الغفلة عن الله تعالى، وتميَّز ورودها في الأعراف بأن جميع المواضع بصيغة الفاعل.

- الربط بين أهل الأعراف الذين سميِّت بهم السورة، وتكرار الغفلة فيها خمس مرات بصيغة الفاعل؛ ربما يشير إلى أن الغفلة كانت سببًا في تفريطهم الذى أدَّى إلى عدم غلبة الحسنات.

هذا .. ولا يزال هذا المبحث ينتظر الكثير من التدبر والنظر، لاستخراج المزيد من اللطائف والهدايات، وكل الذي ذُكِرَ منها قابلٌ للنقد والمناقشة من قِبَل الباحثين بعدي في الموضوع، فما هي إلا اجتهادات بشر، يخطيء ويصيب. واللهَ أسألُ السداد والتوفيق..

---

(١) ينظر: الخصائص، ابن جني (٣/ ٢٥٩)/ شرح المفصل، ابن يعيش (٣/ ٤٩)

(٢) ينظر: الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار، يحى بن أبي الخير (١/ ٢٩٢)/ نظم الدرر، البقاعي (٤/ ٤٦٤)/ التحرير والتنوير، ابن عاشور (١٥/ ٣٠٦)

المطلب الثالث: أسباب وكيفية حدوث الغفلة

أولًا – سبب وكيفية حدوث الغفلة:

وضح مما ذُكِرَ في المبحث السابق أن الغفلة تحدث بانغلاق باب العلم الذي هو غذاء ودواء قوة الفكر، وانغلاق مدخل الموعظة التي هي غذاء ودواء قوة الإرادة، وبإنعداهما يصير القلب ضعيفاً لا قوة له، ويُصبِحُ عرضة لأي مرض آخر، لأنه فَقَدَ كل مناعته، فتكون الغفلة أشبه بمرض الإيدز للبدن، ونستطيع أن نسميها: **مرض فقدان القوة والمناعة المعنوية للقلب ..**

المتسبِّبُ الأول والمسؤول الحقيقي من إحداث الغفلة هو النفس، وذلك لأنها "تحب الراحة والدَّعة والسكون والرفاهية، وتحب تلبية شهواتها ورغباتها"[1]، فدخول العلم إلى القلب سيؤدِّي إلى تكليفها بمشقة العمل، ودخول الموعظة سيحرمها من شهواتها، ولذلك تتعمَّد إغلاق فتحتي العلم والموعظة إغلاقاً كاملاً أو جزئياً، فتزداد بذلك فتحتي الشبهة والشهوة، لأن التناسب بين كل اثنين منهما عكسي. فكلما زادت فتحة العلم الداخل إلى القلب؛ ضاقت فتحة الشبهة الواردة، وكذلك في الموعظة والشهوة. والنفس بهذه الطبيعة عدوة للقلب "فقد ألقى الله تعالى الْعَدَاوَة بَين النَّفس الأمارة وَبَين القلب، وابتلى العَبد بذلك، فلا تزال الحرب سجالاً ودُوَلاً بينهما إلى أَن يستَولي أحدُهما على الآخر ويكون الآخر مقهوراً معَه"[2]. و"النفس مجبولة على حب الهوى، فافتقرت إلى المجاهدة والمخالفة، ومتى لم تُزْجر عن الهوى، هجم عليها الفكر في طلب ما شُغفت به، فاستأنست بالآراء الفاسدة والأطماع الكاذبة والأماني العجيبة"[3]. إذًا.. النفس هي العدو الألصق بصاحبها، "نعوذ بالله من شرور أنفسنا"[4].

---

(١) الداء والدواء، ابن القيم (١/ ٤٥٣)

(٢) الفوائد، ابن القيم (ص: ١٠٣)

(٣) ذم الهوى، ابن الجوزي (ص: ٣٦)

(٤) الاستعاذة من شر النفس كانت ثابتة في خطبة النبي صلى الله عليه وسلم، أخرجه أحمد في مسند عبد الله بن مسعود (١/ ٣٩٢) حديث رقم (٣٧٢٠) تعليق شعيب الأنؤوط: صحيح.

وفوق ذلك النفس هي العدو الأول لصاحبها، أي قبل الشيطان، وقد دلَّ عليه حديث عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ أَنَّ أَبا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رضي اللهَّ عنه قالَ: يا رَسُولَ اللهِّ مُرني بِكَلِماتٍ أَقُولُهُنَّ إذا أَصْبَحْتُ وإِذا أَمْسَيْتُ، قالَ: "قُلِ اللَّهُمَّ فاطِرَ السَّمَواتِ والأَرْضِ عالِمَ الغَيْبِ والشَّهادَةِ، رَبَّ كُلِّ شَيء وَمَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لا إله إِلّا أَنْتَ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسي وَشَرِّ الشَّيْطانِ وَشِرْكِهِ"(١).

وقوله: (مِنْ شَرِّ نَفْسِي) لأَنَّها مَنبعُ الأشرارِ كما أنَّ القَلبَ معدِنُ الأسرارِ، وقد تضمَّن هذا الذكر الاستِعاذَة من الشَّرِّ وأسبابه وغايته، فإن الشَّرّ كُله إمَّا يصدر من النَّفس أو من الشَّيطَان، وغايته إما أَن يعود على العامِل أو أخِيه المُسلم، فتضمن الحَدِيث مصدري الشَّرّ الذي يصدر عَنهُمَا وغايته"(٢).

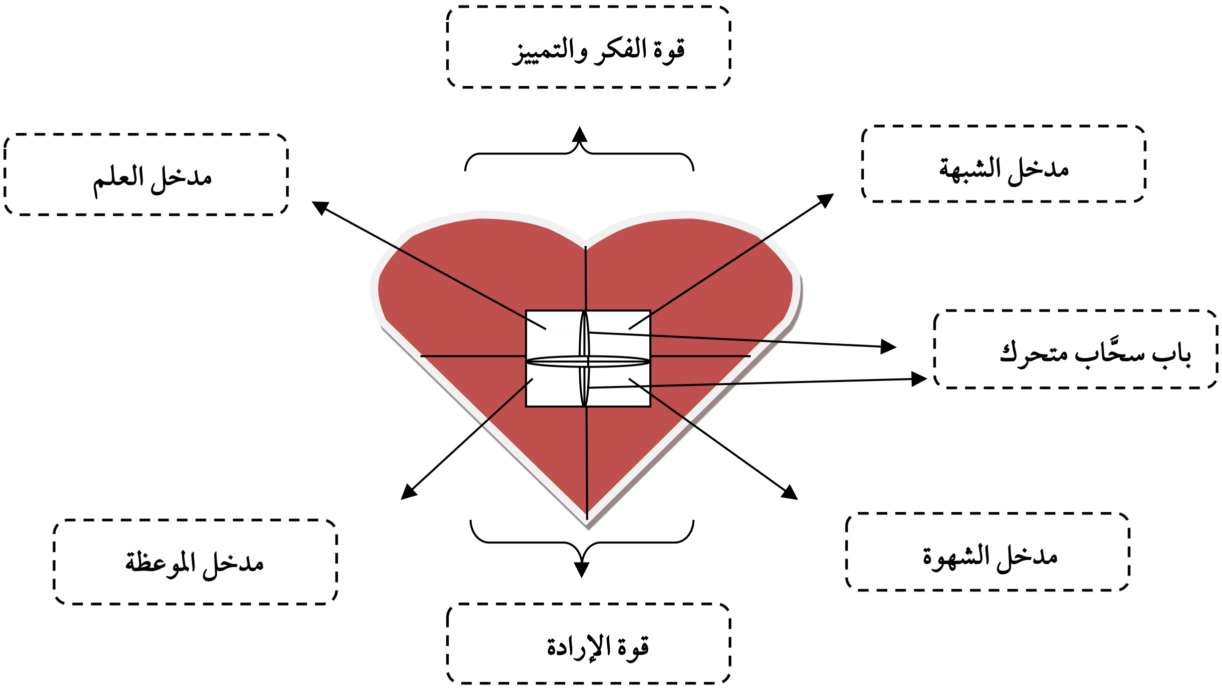

رسم تقريبي يوضح قوتي القلب، ومداخل العلم والموعظة، والشبهة والشهوة.

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب: ما يقول إذا أمسى (ص: ٦٨٢) حديث رقم (١٢٠٢) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦/ ٥٨٠) حديث رقم (١٧٥٣)

(٢) ينظر: مرقاة المفاتيح، القاري (٤/ ١٦٥٨)/ التيسير بشرح الجامع الصغير، المناوي (٢/ ١٩٨)

وبقي أن نعلم لمزيد من تخيُّل كيفية حدوث الغفلة أن فتحتي العلم والشبهة بينهما بابٌ سحَّاب لا يغلقهما معًا، ولا يفتحمها معًا، وكذلك بين فتحتي الموعظة والشهوة..

وينتج عن وضعية المداخل في حالتي الفتح والإغلاق أربعة أحوال للعباد لا يخرجون عنها البتة، وكلها أشارت إليها النصوص، ووُجِدَت في الماضي وفي الحاضر، وهي:

الحالة الأولى – انفتاح مدخلي العلم والموعظة (العلماء العاملون):

انفتاحهما يُغْلِقُ مدخلي الشبهة والشهوة، فينتج عن ذلك عالمٌ عابدٌ (وهو المطلوب شرعاً)، وهي أعلى حالات الكمال، قال ابن القيم: "الكمال أن يكون القلب عارفًا بتفاصيل الشر، سليمًا من إرادته .... وقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ الشعراء: ٨٨ - ٨٩، فهذا هو السليم من الآفات التي تعتري القلوب المريضة من مرض الشبهة التي توجِب اتباع الظن، ومرض الشهوة التي توجِبُ اتباع ما تهوى الأنفس، فالقلب السليم الذي سلم من هذا وهذا"[1].

قال تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ البقرة: ٢٦٩، وقوله:(يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ) أي: يوفق للعلم والعمل به. والحكيم عند اللهَّ: هو العالم العامل. و(خَيْرًا كَثِيرًا) تنكير تعظيم، كأنه قال: فقد أوتي أي خير كثير. (وَما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ) يريد الحكماء العُلّام العمال[2]. وعلّق الطيبي على هذا الشرح بقوله: "وفي قول المصنف: "الحكماء: العُلَّام العمَّال" على المبالغة، بعد قوله: "والحكيم عند الله هو: العالم العامل"؛ تنبيهٌ على أن قوله: (أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ) مُظْهَر وُضِعَ موضع المضْمَر، وأن العاقل الكامل المتناهي هو الذي بالغ واجتهد في الجمع بين العلم والعمل وأتقن فيهما ورسخ بهما قدمه، ... ومن فقد ذلك فقد حُرِمَ أن يسمى حكيماً""[3].

(١) الروح (ص: ٣٣٤)

(٢) الكشاف ، الزمخشري (١/ ٣١٦)

(٣) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) (٣/ ٥٣٤)

وبظهر من مجموع ما ذُكِر في تفسير الآية أنَّ المراد من الحكمة فيها إما العلم وإما فعل الصواب، والحكمة غالبًا لا تخرج عن هذين المعنيين، وذلك أن كمال الإنسان أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به، فقول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا﴾ الشعراء: ٨٣ ، إشارة على العلم، وقوله: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ الشعراء: ٨٣ ، إشارة إلى العمل، وقول عيسى عليه السلام: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ مريم: ٣٠ إشارة إلى العلم، ثم قوله: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ مريم: ٣١ إلى العمل، وقال الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا﴾ طه: ١٤ مشيراً إلى العلم، ثم قال: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ طه: ١٤ مشيراً إلى العمل، ثم عمَّ جميع الأنبياء بقوله: ﴿أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا﴾ النحل: ٢ مريداً به العلم، وبقوله: ﴿فَاتَّقُونِ﴾ النحل: ٢ العمل، والقرآن هو من الآية الدالة على أن كمال حال الإنسان ليس إلا في هاتين القوتين[1] .

الحالة الثانية: انفتاح مدخلي العلم والشهوة (العلماء الفجَّار):

وانفتاحهما أو توسعهما يُغْلِقُ أو يضيِّق مدخلي الشبهة والموعظة، فينتج عنه عالمٌ فاجرٌ. وإذا اجتمع العلم مع الفجور دلَّ على أن العلم لم ينفع صاحبه، وهو ما كان يستعيذ منه النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه: "اللهُمَّ إِني أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ"[2].

وأحيانًا يُنْفَى العلم عمن لم ينتفع به، لأنه لما تخلف المقصد الأساسي من العلم، ولم يجرَّ صاحبه إلى العمل؛ كان كأنه لم يتعلَّم، فقد ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ النحل: ٧٥ ، "ونَفْيُ العلم عنهم إما لكونهم من الجهل بمنزلة لا يفهمون بسببها ما يجب عليهم، أو هم يتركون الحق عنادًا مع علمهم به فكانوا كمن لا علم له. وخصَّ الأكثر بنفي العلم إما لكونه يريد الخلق جميعًا وأكثرهم المشركون، أو المراد أكثر المشركين، لأن فيهم من يعلم ولا يعمل بموجب العلم"[3].

---

(١) ينظر: مفاتيح الغيب، الرازي (٧/ ٥٩-٦٠)

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: التعوذ من شر ما عمل، ومن شر ما لم يعمل (٤/ ٢٠٨٨) حديث رقم (٢٧٢٢)

(٣) فتح القدير، الشوكاني (٣/ ٢١٧)

والفجور يعني عدم العمل بمقتضى العلم في الأمر والنهي، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: "يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقى في النَّارِ؛ فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فَيَدُورهَا كما يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ؛ فَتَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ، فَيَقُولُونَ: يا فُلانُ مَا شَأْنُكَ؟ أَلَسْتَ كُنْتَ تَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهى عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فيقولُ: كُنْتُ آمُرُكم بِالْمَعْرُوفِ ولَا آتيهِ، وَأَنهاكم عَنِ الشَّرِّ وآتيه"[1]. فأمره ونهيه لغيره دلَّ على أنه يعلم، وعدم تطبيقه دلَّ على فجوره، والسبب الذي يمنع العالم من العمل هو الشهوة واتباع الهوى، دليله قوله تعالى:﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ﴾ الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦

قال مجاهد: "هو بلعام بن باعر[2]، وكان في بني إسرائيل، رجلٌ أوتي كتابًا فانسلخ منه فأخلد إلى شهوات الدنيا ولذاتها ولم ينتفع بما أُعطيَ من الكتاب"[3]. وقوله: (فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا) يعني: خرج منها كما تنسلخ الحية من جلدها. ويقال: تهاون بها ولم يعرف حقَّها، ولا حرمتها[4].

وقال السعدي: "قال تعالى: (وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا) بأن نوفِّقه للعمل بها، فيرتفع في الدنيا والآخرة، فيتحصَّن من أعدائه، (وَلَٰكِنَّهُۥٓ) فعل ما يقتضي الخذلان، فـ(أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ)، أي: إلى الشهوات السفلية، والمقاصد الدنيوية، (وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ) وترك طاعة مولاه"[5].

وينتج من مجموع ذلك أن النفع الحقيقي للعلم هو التسبُّب في إنجاء صاحبه، بأن يقوده إلى العمل، لا إنجاء الغير فقط، لأنَّ النفع الحقيقي هو بالتأثير على مداخل الشر في قلب العالم، لا في قلب غيره.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: بدء الخلق، باب: صفة النار وأنها مخلوقة (٤/ ١٢١) حديث رقم (٣٢٦٧)

(٢) اختُلِف في من نزلت فيه الآيات، فقيل بلعم بن باعوراء، وقيل، الأكتم بن صيفي، وقيل: أمية بن أبي الصلت (ينظر: تفسير عبد الرزاق (٢/ ٩٨)/ جامع البيان، الطبري (١٠/ ٥٧٠-٥٧٣))

(٣) تفسير مجاهد (١/ ٢٥٠)

(٤) بحر العلوم، السمرقندي (١/ ٥٦٦)

(٥) تيسير الكريم الرحمن (ص: ٣٠٩)

ولذلك الحفظ المجرد للنصوص يجعل صاحبه كالإناء فقط، يحمل الشيء لمن يرغب به، ولا يتأثَّر هو في نفســه به، ولا ينال بذلك العلم فضـيلة ولا يرتفع به منزلة، قال بدر الدين بن جماعة: "واعلم أن جميع ما ذكر من فضـيلة العلم والعلماء إنما هو في حق العلماء العاملين الأبرار المتقين، الذين قصــدوا به وجه الله الكريم، والزلفى لديه في جنات النعيم"[1].

الحالة الثالثة – انفتاح مدخلي الشبهة والموعظة (العبَّاد الجاهلون):

وانفتاحهما يُغْلِقُ مدخلي العلم والشهوة فينتج عنه عابدٌ جاهلٌ. وهذا آفته من إعراضه عن العلم وأحكامه، وغلبة خياله وذوقه ووجده، وما تهواه نفسه، وقد ضرب الله سبحانه مثلٌ للعابد الفاجر بقوله جل جلاله: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ الحشر: ١٦، فـ(الإنسان) في هذا المثل بنى أساس أمره على عبادة الله بجهل، فأوقعه الشيطان بجهله، وكفَّره بجهله، فهذا إمامُ كلِّ عابدٍ جاهلٍ، يكفر ولا يدري[2].

وقد اختلف المفسرون في المراد بالإنسان في الآية الكريمة، هل هو جنسُ الإنسانِ؟ أم إنسانٌ بعينه؟ ثم اختلفوا في المعيَّن، وساقوا في ذلك قصصًا وروايات[3]، ولكن الاستدلال بالآية على هذه القضية ليس موقوفًا على صحة أحد أقوالهم، فهناك إشارة في الآية دالة على أن هذا الإنسان المغْوَى كان على جهل، وهي الفاء في قوله:(فَلَمَّا كَفَرَ)، قال البقاعي في تفسيرها: "ولما كان الإنسان بما يساعد تزيين الشيطان عليه من شهواته وحُظوظه وأخلاقه يطيع أمره غالباً قال: (فَلَمَّا كَفَرَ) أي: أوجد الكفر على أي وجهٍ كان، ودلَّت الفاء على إسراعه في متابعة تزيينه"[4].

---

(١) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم (ص: ٩)

(٢) ينظر: الفوائد، ابن القيم (ص: ١٠٢)

(٣) ينظر: تفسير مقاتل بن سليمان (٤/ ٢٨٢)/ تفسير عبد الرزاق (٣/ ٣٠٠)

(٤) نظم الدرر (٧/ ٥٣٣)

فإيجاده للكفر على أي وجهٍ كان فيها دلالة على جهله، وإسراعه في الكفر فيه دلالة أكبر وأوضح، لأنَّ العالم قد يكون سريع السقوط في المعاصي لأنها من جهة الشهوة، لكنه ليس كذلك في الكفر، لأنه من جهة الشبهة، - حتى إن كان طريقه شهوة- وهو بعلمه غالباً ما يستطيع رد الشبهات..

هذه الصورة والسابقة لها فيهما عدم استعمال لأحد قوتي القلب، فنَقْصُ العبد فيهما يكون بقدر نوع القوة غير المستعملة، والمقدار الذي نقص منها، وتتفاوت على ذلك درجات العلماء الفاجرين، والعُبَّاد الجاهلين إلى مراتب ودرجات لا يعلمها إلا الله تعالى، وإن كان جنس العالم الفاجر أفضل من جنس العابد الجاهل، لشرف العلم ومنزلته على العبادة، ولأنَّ الجاهل إذا عرف كان أقرب إلى الانقياد والاتباع، وبهذا يكون قد قطع نصف الطريق إلى الحق، وما بقي عليه إلا قوة الإرادة، وصدق العزيمة على الرشد، وهنا تبرز أهمية الدعاء بالعلم، وبالعزيمة على الرشد(١).

وكلٌ من العالم الفاجر، والعابد الجاهل مضرٌ لنفسه مهلك لها، ومضرٌ بالأمة وصادٌ لها عن الحق، قال سفيان ابن عيينة: "احذروا فتنة العالم الفاجر وفتنة العابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنةٌ لكل مفتون، فهذا بجهله يصدُّ عن العلم وموجبه، وذاك بغيِّه يدعو إلى الفجور"(٢).

هذه الصور الثلاث تمثِّل أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين جمعوا العلم والعمل، وأهل الكتاب فاليهود أخص بالغضب؛ لأنهم أمة عناد، والنصارى أخص بالضلال؛ لأنهم أمة جهل، وكل من أنقص شيئا من العلم أو العمل من أمة محمد صلى الله عليه وسلم كان أقرب لأحد الطائفتين بحسب نقصه، قال سفيان بن عيينة: "من فسد من عبَّادِنا ففيه شبه من النصارى، ومن فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود؛ لأن النصارى عبدوا بغير علم، واليهود عرفوا الحق وعدلوا عنه"(٣).

---

(١) ينظر: موسوعة وصايا للدعاة الى الله، أمير بن محمد المدري (١/ ١١٢)

(٢) ينظر: حلية الأولياء، أبو نعيم الأصبهاني (٦/ ٣٧٦)/ شرح السنة، البغوي (١/ ٣١٨)

(٣) الأثر أورده ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢/ ٨٦) ولم أجده في كتب الآثار.

الحالة الرابعة - انفتاح مدخلي الشبهة والشهوة (الفجّار الجاهلون):

وانفتاحهما أو توسِّعهما يُغْلِقُ مدخلي العلم والموعظة أو يضيقهما، فينتج عنه فاجرٌ جاهلٌ. وهذا في أسوأ المراتب، لأنه محروم من العلم الذي قد يتسبَّب في هدايته يومًا ما، ومحروم من الاستفادة من الموعظة التي قد تدفعه للحركة نحو العمل فيبحث عن العلم ليعمل بمقتضاه، فهذا الصنف بعيدٌ عن الله تعالى، وبعيدٌ عن الصراط المستقيم، وأبعد منه من لم يكتف بجهله؛ بل صدَّ الناس عن طلب العلم.

وقد ذكر هذا الأخير مع الأصناف السابقة محمد بن الفضل الْبَلْخِيُّ فقال: "ذَهَابُ الْإِسْلَامِ من أربعة، أولها: لا يعملون بما يعلمون، والثاني: يعملون بما لا يعلمون، والثالث: لا يتعلمون ما لا يعلمون، والرابع: يمنعون الناس من التعلم"[1].

قال ابن القيم تعليقًا على الأصناف الثلاثة: "قلت: الصنف الأول: من له علمٌ بلا عمل، فهو أضرُّ شيء على العامة، فإنه حجة لهم في كل نقيصة ومنحسة، والصنف الثاني: العابد الجاهل، فإن الناس يحسنون الظن به لعبادته وصلاحه، فيقتدون به على جهله، وهذان الصنفان هما اللذان ذكرهما بعض السلف في قوله: "احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل فإن فتنتهما فتنةٌ لكل مفتون"[2]، فإن الناس إنما يقتدون بعلمائهم وعبَّادهم، فإن كان العلماء فَجَرَة والعبادُ جَهَلَة؛ عمَّت المصيبة وعظمُت الفتنة على الخاصة والعامة، والصنف الثالث: من لا علم لهم ولا عمل وإنما هم كالأنعام السائمة"[3].

وهذا الصنف الأخير في تعليق ابن القيم هم الذين وصفهم الله تعالى بالأنعام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الأعراف: ١٧٩، وفي ذلك دليلٌ على أن السقوط إلى مرتبة الحيوانية له علاقة مباشرة بمدى غفلة القلب عن سماع الحق، ورؤية الحق، والتزامه في الحياة..

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصفهاني (١٠/ ٢٣٣)

(٢) سبق ذكر الأثر منسوبًا لقائله (ص: ٣٣)

(٣) مفتاح دار السعادة، ابن القيم (١/ ١٦٠)

ثانيًا – خطوات النفس في إحداث الغفلة:

أعظمُ شرٍّ للنفس يتأذَّى به صاحبها هي أنها تعمل على إغلاق مداخل العلم والموعظة على القلب لتنعم بالراحة ونيل الملاذ والشهوات، وهي كالشيطان في أنها تجتهد لتحقيق أهدافها، وتنتقل من أسلوب إلى أسلوب ومن خطوة إلى خطوة، وهذا يفهم من صيغة المبالغة المؤكدة (لَأَمَّارَةٌ) في قوله تعالى حكاية عن القائل: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ﴾ يوسف: ٥٣.

فقوله: (لَأَمَّارَةُۢ) أي: شديدة الأمر (بِٱلسُّوٓءِ)، أي هذا الجنس دائماً، لطبعها على ذلك في كل وقت. فالنفس أمارة بالسوء بطبعها، فإذا تزكَّت وصفت من أخلاقها الذميمة صارت مطمئنة[1].

وقال الطبري في تفسير الآية: " (إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ) يقول: إن النفوس، نفوس العباد تأمرهم بما تهواه، وإن كان هواها في غير ما فيه رضا الله، (إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ) يقول: إلا أن يرحم ربي من شاء من خلقه، فينجيه من اتباع هواها وطاعته فيما تأمره به من السوء"[2].

وقال الماتريدي في قوله تعالى: (إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ) "أي: ما عصم ربي؛ لأن النفس جُبِلت وطُبِعَتْ على الميل إلى الشهوات واللَّذات، والهوى فيها والرغبة، والتوقِّي عن المكروهات والشدائد"[3]. وزاد ابن عرفة على ذلك بقوله: "وإخراج الأقل من الأكثر يدلُّ على أن أكثر النفوس أمارة بالسوء"[4].

ونخلص من هذه النقولات أن الأمر بالسوء صفة راسخة في جلِّ النفوس، وأنها لا تزول إلا بالتربية والتزكية، بتوفيق الله لها، وأن دوافع أمرها لصاحبها بالسوء هو رغبتها في التوقِّي من الشدائد التي منها التكاليف الشرعية، والحذر من المكروهات والتي منها حرمانها مما تُحبُّ وتشتهي.

---

(١) ينظر: نظم الدرر، البقاعي (٤/ ٥٩)/ لباب التأويل، الخازن (٣/ ٢٩٠)

(٢) جامع البيان (١٦/ ١٤٢)

(٣) تأويلات أهل السنة (٦/ ٢٥٤)

(٤) تفسير ابن عرفة (٢/ ٣٩٢)

قال ابن القيم في تفصيله لصفات النفس: "وأما النفس الأمارة فهي المذمومة فإنها التي تأمر بكل سوء وهذا من طبيعتها إلا ما وفقها الله وثبتها وأعانها، فما تخلَّص أحدٌ من شر نفسه إلا بتوفيق الله له، كما قال تعالى حاكيًا عن امرأة العزيز: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ يوسف: ٥٣، وقال تعالى: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا﴾ النور: ٢١، وقال تعالى لأكرم خلقه عليه وأحبهم إليه: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ الإسراء: ٧٤"[١].

وتقرير هذا الدور الخطير للنفس لا يلغي ولا يُقلِّل من دور الشيطان في الإغواء والإضلال، بل هي أدوارٌ متكاملة ومتداخلة، فالشيطان يستغل ما جُبِلت عليه النفوس من الصفات والرغبات، فيوسوس لها بناءً على ما هو في طبعها، لذلك لما أراد أغواء آدم عليه السلام وحَمْلَه على الأكل من الشجرة الممنوعة؛ استخدم هذا الأسلوب كما قال تعالى: ﴿فَوَسۡوَسَ إِلَيۡهِ ٱلشَّيۡطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾ طه: ١٢٠، "فسَمَّى الشجرةَ التي نهى اللهُ تعالى آدمَ عن قُربانها شجرةَ الخُلد، جذباً لطبعه إليها، وهَزًّا لنشاطه إلى قُرْبانها، وتدليساً عليه بالاسم الذي اخترعه لها"[٢]. ولولا أن النفوس تحبُّ الملك والخلود في النعيم ، لما كان في استعمال هذه التسمية أثرٌ ودورٌ فى الإغراءِ والإغواءِ.

والعادة أن كلَّ راغبٍ في أمر يحاول الوصول إليه كلِّه وبعملٍ واحدٍ، فإن لم يستطع فإنه يتنازل تدريجيًا لخيارات تحقِّق له مستوى أقل من المطالب، وعلى ذلك نتوقَّع أن النفس ستحقِّق ما تصبو إليه عبر عدة خطوات واجراءات وخيارات مرتَّبة، وهي على النحو التالي:

الخيار الأول: صرف القلب عن العلم والموعظة صرفاً كاملاً، بحيث لا يطلبُ العلم، ولا يسمع الموعظة، ولا يتَّعظ من المواقف والأقدار، وهذا العمل داخلٌ في معنى قوله: (لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ) وهو يحقِّق لها كلَّ المطلوب من درءِ مفسدةِ المشقة، وتحقيق مصلحة الراحة واللَّذة غير المشروطة، ولا المقيدة..

---

(١) الروح (ص: ٢٢٦)

(٢) تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد، الصنعاني (ص:٦٢)

الخيار الثاني: إن كان العبدُ أصلبَ من أن تَصْرفه نفسه عن العلم بالكلية؛ تنازلت النفس إلى صرفٍ جزئي، بأن يزاحم العلم والموعظة صوارف وشواغل دنيوية، وافراطٌ في المباحات، فيَقِلّ العلم وسماع المواعظ، وتقلُّ الاستفادة من المواعظ الفعلية، فيَضْعَفُ أثر العلم والموعظة تبعا لقلتِهما وعدم التعمُّق فيهما، وهذا لا يحقِّق لها كل ما تريد، ولكنه يقلِّل من المفاسد، ويحفظُ لها بعض المصالح.

وكما هو معلومٌ ومشاهدٌ فإنَّ "القلب إذا لم يُحفظ من الفُضُول فُضُول الكلام، فُضُول السَّماع، فُضُول النَّظر، فُضُول الأكل، فُضُول النُّوم يُشَوَّش، وحِينئِذٍ يَتأثَّر في تحصيل العِلم"(١).

ولهذا المعنى كان السلف الصالح يسدُّون هذا المنفذ على النفس، فيَجْمَعون قلوبهم وهموهم على طلب العلم، ويجعلونه رحلة عمر، وليس مرحلة مؤقتة، ومن أقوالهم التي تشير إلى ذلك:

- يقول الإمام الشافعي: " لو كلفت شراء بصلة، ما تعلمت مسألة"(٢)، فهذه بصلة فكيف بمن ينشغل بالدنيا !، وليس المقصود أن يكون الطالب عالة على غيره في تحقيق كلِّ مصالحه، ولكن المقصود أن طالب العلم لديه جوٌّ مناسب لتحصيل العلم، ولديه تفرغٌ قلبي من الشواغل، ولذلك عدَّ السلف التهافت على الدنيا والانشغال بها عن الآخرة من آفات العلم، ورحم الله الألبيري حيث يقول:

وما يغنيك تشييد المباني ... جعلت المال فوق العلم جهلًا
وبينهما بنص الوحي بون ... إذا بالجهل نفسك قد هدمتا
لعمرك في القضية ما عدلتا ... ستعلمه إذا طه قرأتا(٣)

- قال صالح بن أحمد بن حنبل: رأى رجلٌ مع أبي محبرة فقال له: يا أبا عبد الله أنت قد بلغت هذا المبلغ وأنت إمام المسلمين! فقال: " مع المِحبرة إلى المقبرة"(٤).

---

(١) الروح (ص: ٢٢٦)

(٢) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، بن جماعة (ص: ٣٦)

(٣) ديوان أبي إسحاق الإلبيري (ص: ٢٧)

(٤) مناقب الإمام أحمد، ابن الجوزي (ص: ٣٧)

- قال أمير المؤمنين، عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تُسَوَّدُوا"[1] .

ومما ورد في معنى العبارة وشرحها:

* أي: تكونوا سادة على غيركم، لأن من وُكِلَت له السيادة زادت أشغاله، و قلَّت أوقاتُ فراغه، سواء كانت السيادة بالزواج أو العمل.

* وقال البخاري: "وقال عمرُ: (تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تُسَوَّدُوا)، ثم قال: " وَبَعْدَ أَنْ تُسَوَّدُوا"[2]. قال الحافظُ ابن حجر : "لِيُبَيِّنَ أَنْ لَا مَفْهُوم لَهُ، خَشْيَة أَنْ يَفْهَم أَحَد مِنْ ذَلِكَ أَنَّ السِّيَادَة مَانِعَة مِنْ التَّفَقُّه، وَإِنَّمَا أَرَادَ عُمَر أَنَّهَا قَدْ تَكُون سَبَبًا لِلْمَنْعِ؛ لِأَنَّ الرَّئِيس قَدْ يَمْنَعهُ الْكِبْر وَالِاحْتِشَام أَنْ يَجْلِس مَجْلِس الْمُتَعَلِّمِينَ"[3]. وحتى على هذا التفسير للعبارة فإنها تشير إلى الحذر من موانع الطلب، فالعبارة على كل المعاني تفيد أن طلب العلم يجب أن يكون ملازمًا لحياة العبد، وأن يجنِّبه كل الموانع والعقبات التي تؤثر فيه إعدامًا أو تقليلًا، وأجمع الأدلة على هذه المسألة هي قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ القصص: ٧٩ - ٨٠ ، وقوله: (وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ) **عطف على جملة** (قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا) فهي مشاركة لها في معناها، لأن ما تشتمل عليه خرجة قارون، وما تدلُّ عليه ملامحه من فتنة ببهرجته وبزته دالة على قلة اعتداده بثواب الله، وعلى تمحضه للإقبال على لذائذ الدنيا ومفاخرها الباطلة، ففي كلام الذين أوتوا العلم تنبيهٌ على ذلك وإزالة لما تستجلبه حالة قارون من نفوس المبتلين بزخارف الدنيا[4]. ومن هدايات الآية أن طلب العلم هو الذي يحقق الزهد في الدنيا، وليس كثرة المواعظ، وظهر من ذلك موقع الدنيا الحقيقي من قلوب الذين أوتوا العلم النافع..

---

(١) أخرجهُ ابنُ أبي شيبة في المصنَّف بسندٍ صحيح، ما جاء في طلب العلم وتعليمه (٥/ ٢٨٤) برقم (٢٦١١٦)

(٢) قال البخاري: باب بَابُ الِاغْتِبَاطِ فِي العِلْمِ وَالحِكْمَةِ، وقال عمر: ... صحيح البخاري (١/ ٢٥)

(٣) فتح الباري (١/ ١٦٦)

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٢٠/ ١٨٤)

الخيار الثالث: إن كان العبد أقوى وأحرص من الالتفات عن العلم بصوارف الحياة وفضول المباحات انتقلت النفس إلى أن تشغل القلب بصورة العلم عن حقيقته وروحه قليلاً كان أو كثيراً، وهذا مثل السابق أو أقل منه بقليل، بحسب مستوى انشغال القلب عن روح العلم، لأنَّ ذلك يثمر حافظ للنصوص والمتون العلمية غير عامل بها، وبما تقتضيه، وأول مفاسده أن يذهب بركة العلم، ونور الإيمان، "فنور الإيمان ناشيء عن روح العلم"[1].

قال الله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ الأنعام: ١٢٢، والمراد بها من كان ميت القلب بعدم روح العلم والهدى والإيمان، فأحياه الرب تعالى بروح أخرى غير الروح التي أحيا بها بدنه، وهي روح معرفته، وتوحيده، ومحبته، وعبادته وحده لا شريك له، إذ لا حياة للروح إلا بذلك، وإلا فهي في جملة الأموات، ولهذا وصَفَ الله تعالى من حُرِم ذلك بالميت في قوله سبحانه: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ النمل: ٨٠[2].

وقال الشيخ محمد المختار الشنقيطي في قوله تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ الكهف: ٦٩، "علّق الصبر على المشيئة، ولم يعلّقه على قوته وحوله ، ....ولذلك لما فقدنا الذلة للعلم؛ فقدنا روح العلم، تجد العلم ولكن لا تجد روحانية هذا العلم في القلوب. فقلِيلٌ مِن العلْم مَع رُوح العلْم، وَالشّعور بالعِلْم، وَأمَانة العلم، وَمَسْؤوليّة العِلْم، خَيْر مِن كَثير ينسلخ مِنه الإنسَان وَالعياذ بالله"[3]. فالتقوى هي روح العلم، فإن فارقته كان جسماً بلا روح، قال الخطيب البغدادي: «إني موصيك يا طالب العلم بإخلاص النية في طلبه، وإجهاد النفس على العمل بموجبه، فإن العلم شجرة، والعمل ثمرة، ولا يعدُّ عالمًا من لم يكن بعلمه عاملاً، فعليك بالجمع بينهما وإن قلَّ نصيبك منهما"[4].

---

(١) نظم الدرر، البقاعي (٤/ ٥٤١)

(٢) فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب (٨/ ١٩٥)

(٣) درر الفوائد من أقوال الشيخ محمد بن محمد المختار الشنقيطي (١/ ١٤)

(٤) اقتضاء العلم العمل، الخطيب البغدادي (ص: ١٨)

إذًا .. العلم الشرعي وسيلة إلى عبادة الله، ليس مقصوداً لذاته من حيث النظر الشرعي، وإنما هو وسيلة إلى العمل، وبدون روحه وحقيقته؛ عاريةٌ وغيرُ منتفعٌ به، قال تعالى:﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ فاطر: ٢٨ ، قال سفيان الثوري: "إنما يُتَعلَّم العلمَ لِيُتَقَي به الله، وإنما فُضِّل على غيره؛ لأنة يُتَّقَي اللهُ به"[١].

الخيار الرابع: أما إن كان العبد على مستوىً مرتفع من التَّفرغ للطلب، وحريصٌ على العمل؛ ومجتهدٌ لنيل حقيقة العلم والحياة بروح العلم؛ لم تيأس النفس قي تحقيق مطلوبها، بل تسعى لإيجاد آفات جليدة، ربما لم تكن كلها موجودة في بداية الطلب، وذلك لتُحبط أو توقف الأثر العملي المترتِّب عليه، وأخطر الآفات ثلاث: الكبر، الرياء، الحسد، وتلقَّب بعقارب طلبة العلم، وحيات العلماء[٢].

الكبر: والكبر كما بينه النبي صلى الله عليه وسلم هو "بطر الحق وغمط الناس"[٣]؛ أى احتقارهم وازدراؤهم، فالكبر مهلك لصاحبه، قاضٍ على علمه، ولا يجتمع الكبر والعلم في قلب، وإن كان يحمل من العلم أثقالاً. ولقد بوب الإمام البخارى في "صحيحه": "لا يتعلم العلم مستحى ولا مستكبر"[٤].

فـ: العلمُ حربٌ للفتى المتعالى *** كالسِّيلِ حربٌ للمكانِ العالى[٥]

والكِبْر قد يأتي بعد الطلب لما يرى العبد أنه قد تفوَّق على أقرانه، وارتفع عنهم بما يحفظ وما يفهم من المسائل العلمية، ولكنه قطعًا لا يصيب كل الطلاب، بل هو غالبا داء المرائين، لقوة العلاقة بين العجب الذي هو مقدمة الكبر والرياء، قال ابن تيمية: "وكثيرًا ما يقرن الناس بين الرياء والعجب، فالرياء من باب الإشراك بالخلق، والعجب من باب الإشراك بالنفس، وهذا حالُ المستكبر"[٦].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله، أبوعمر القرطبي (١/ ١٩٢)

(٢) العلماء مالهم وما عليهم، القرني (ص: ١١)

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب: الكبر (ص: ٢٨٦) برقم (٥٥٦)

(٤) عنوان الباب: بَابُ الحَيَاءِ فِي العِلْمِ، وقال مجاهد: ..... (ينظر: صحيح البخاري (١/ ٣٨))

(٥) أورده الغزالي في إحياء علوم الدين (١/ ٥٠) وبحثت عن قائله في مظانه فلم أعثر عليه

(٦) الفتاوى الكبرى (٥/ ٢٤٧)

أما داء الرياء فبالإضـافة إلى أنه محبطٌ للعمل، فإن فقدان ضِـده وهو الإخلاص سـببٌ للتوقف، ولعدم الانتفاع بالعلم، قال ابن تيمية: "ما لا يكون بالله لا يكون، وما لا يكون لله لا ينفع ولا يدوم"[1].
الداء الثالث هو الحسـد: ومبعثُ الحسـد في النفس ما رُكِّبَ فيها من حب الغنى، والسـيطرة، والأثرة وحب التَّملُّك، والرغبة في الاسـتعلاء. فإذا ما وجدث ما يفوقها في ذلك اسـتطار شرها ، وله عدة أسباب ودواعي. والحسد الذي يكون بين العلماء وطلاب العلم غالبا سببه حب الرئاسة، كمن يريد أن يكون عديم النظير في فن من الفنون، أو علم من العلوم، فإنه لو سـمع بنظير له في أقصى العالم سـاءه ذلك، و أحب موته، ولذلك تجد الحاسـد مشغول الذهن بالمحسـود، متتبِّعٌ لنعمه أفي زيادةٍ أم نقصـان؟ وهذا التشـويش الذهني يتنافى مع الطلب والتحصـيل الذي يحتاج إلى الهدوء والصـفاء، بالإضـافة إلى أن الحسـد يأكل الحسـنات، ويتغذَّى على الإيمان، فهو هو مشـتق من "الحسـدل"، وهو القُرَادُ، للصـوقه بما يتعلق به، ولأن الحسـد يتغذَّى من الإيمان كما تتغذى القرادة بدم الحيوان الذي لصـقت به[2]. فالعالم الحاسد أضرَّه الحسد من أكثر من طريق، وكلُّ ذلك من عداوة النفس لنفسها، و غرورها، و ظلمها.

وقد تأكَّد من عرض كيفية حدوث الغفلة، وتحديد المتسـبِّب فيها، أن النفس هي العدو الأول للإنسان، وأنها لا تيأس من تحقيق مطلوبها، من خلال القيام بخطوات متعدِّدة، ومرتَّبة، لتصرف العبد عن العلم والاتعاظ، أو تقلِّل مفعوليها. أما الشيطان فإن دوره الوسوسة والتزيين وما شـابهه، ولكن ليس له سـلطان على الأنفس، ولذلك يقول في خطبته المحكية في القرآن الكريم:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ ﴾ إبراهيم: ٢٢. وفي الحديث القدسي: "...فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه"[3].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل (٢/ ١٨٨)

(٢) ينظر: مطالع الأنوار، ابن قرقول (٢/ ٣٥٣)/ روح البيان، الخلواتي (٩/ ٤٧٥)

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيح الأدب المفرد (ص:١٨٣) باب: الظلم ظلمات، رقم الحديث (٣٧٧)/ مسلم في صحيحه (٤/ ١٩٩٤) كتاب: البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم حديث رقم (٢٥٧٧)

ثالثًا – العوامل المساعدة على نومة العين والعوامل المساعدة على غفلة القلب:

لما كانت الغفلة هي نومة القلب؛ يحسن أن نجري مقارنة بين نوم العين ونومة القلب، ذلك لأنه بعد إعادة النظر في الغفلة وكيفية حدوثها تبين لي أن كل العوامل المساعدة على نومة العين لها مشابه أو مطابق يساعد النفس على إحداث نومة القلب، ومعرفتها مما يعين على علاج الغفلة، والوقاية منها، وهي:

١/ الظلام – الجهل:

يحدث الاسترخاء، ثم النوم عندما تقوم الغدة الصنوبرية الواقعة تحت الدماغ بإفراز هرمون الميلاتونين، ويزداد إفرازه في الظلام، بينما يثبط إفرازه نور الشمس، فللميلاتونين تأثير مباشر على النوم. ويلزم لحدوث النوم زوال جميع التنبيهات الخارجية من سمع وبصر، والتي تنتقل عن طريق حواسه إلى الدماغ، وعندما تخفُّ تلك التنبيهات أو تنعدم تخف وظائف الدماغ المتوقِّفة عليها ويحصل النوم[1]، ولذلك كان من آيات الله الدالة عليه وعلى عظيم صفاته أن جعل الليل مظلم ليحدث فيه النوم والسكن، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴾ يونس: ٦٧، قال البقاعي في تفسيرها: "(جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ) أي: مظلماً (لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ) راحةً لكم ودلالةً على قدرته سبحانه على الإيجاد والإعدام، وأُنساً للمحبين لربهم، (وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًا) أي: لتنتشروا فيه، حُذِف وصف الليل وذُكِرَت علتُه عكس ما فعل بالنهار ليدل على ما حُذِف، فالآية من الاحتباك[2] .

والظلام يمثِّل الجهل، فعدم وجود الإنسان في بيئة علمية، أو تغميض عينيه عن العلم، هو بمثابة وجود الإنسان في الظلام، وبقدر نور العلم الذي يحمله تكون الإضاءة في القلب قوية ومزعجة فلا تسمح له بالنوم. وهنا تبرز أهمية نيل نور العلم وروحه، وليس مجرد النصوص، وهذا ما يفرِّق بين أصحاب العلم الحقيقي الذين هم أبعد الناس عن الغفلة، وبين المنتسبين للعلم وهم في ظلمةٍ داخلية.

---

(١) روائع الطب الإسلامي، الدقر (١/ ٤٦)

(٢) نظم الدرر (٣/ ٤٦٣)

٢/ سكون الجسد – خلو القلب من العبادات:

حركة الجسد أحد موانع النوم، فلا يُتصوَّر نوم شخص وهو متحرك، ولذلك إذا داهم الإنسان النعاس الشديد وهو يحتاج إلى اليقظة سارع بالتحرك لطرد النعاس، والقلب كذلك له حركة معنوية، فإذا سمع الحق يوجب قبوله إيجاب الإحساس بالحركة، وإيجاب علم القلبِ حركة القلب، فإن الشعور بالملائم يوجب الحركة إليه، والشعور بالمنافر يوجب النفرة عنه، فالإرادة هي حركة القلب، وحركات الجسد تابعة لحركة القلب وإرادته، فإن كانت حركتُه وإرادته لله وحده، فقد صلح وصلحت حركات الجسد كلها، وإن كانت حركة القلب وإرادته لغير الله تعالى، فسد، وفسدت حركات الجسد[١].

إذًا.. القلب يتحرك بالباطل كما يتحرك بالحق، ولكن حركته بالحقِّ هي المعتبرة في وقايته من الغفلة فهي التي تؤدِّي إلى طرد نعاس القلب ، كما تطرد حركة الجسد نعاس العين.

٣/ الهدوء وعدم الضوضاء – عدم وجود الزواجر:

الهدوء من العوامل المعينة جدًّا على النوم، والإنسان يصعب عليه النوم في ظل الإزعاج الشديد، وهدوء الليل يهيئ للإنسان الراحة والنوم[٢] ، ولذلك امتن الله تعالى على البشر بمنحة الليل الهادىء، وبيَّن غفلة أكثر الناس عن شكر هذه النعمة، فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبۡصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ﴾ غافر: ٦١، قال ابن عاشور: "ولم يعكس فيقل:(جعل لكم الليل ساكنا والنهار لتبصروا فيه)؛ لئلا تفوت صراحة المراد من السكون، كيلا يُتوهَّم أن سكون الليل هو شدة الظلام فيه، كما يقال: ليلٌ ساج، لقلة الأصوات فيه"[٣]. ويمثل عدم سماع المواعظ هدوءًا للقلب يسمح له بالغفوة والغفلة، فالمواعظ تزعج القلب وتغضُّ مضجعه.

---

(١) ينظر: تفسير ابن رجب الحنبلي(٥٤ / ٢) / مدارج السالكين (٢/ ٣٧١)

(٢) https://alwadaniclinic.com

(٣) التحرير والتنوير (٢٤/ ١٨٥)

٤-٥/ عدم وجود الهم والخوف المؤرِّقان - الأمن وعدم التفكير في العاقبة:

يُعدُّ الهمُّ العظيم والخوف الشديد من موانع النوم، لأن صاحبهما يكون متوترًا، شديد التفكير في الأمر الذي أهمَّه، ويخشى النتائج، فيأبى عليه النوم ويستعصي النعاس(١)، وكذلك القلب هناك ما يؤدِّي إلى عدم قدرته على النوم نتيجة الهم فوق العادي، وهو الهمُّ في الآخرة، مع جهل المصير والخوف من عدم النجاة، فهمُّ الآخرة ومطالعة الوعيد واستحضاره يشيب الإنسان، فكيف ينام قلبه وقد شاب رأسه! وقد ذكر الله تعالى بعض أسباب الخسران فقال:﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُواْ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ الانشقاق: ١٠- ١٤، قال الإيجي:"(إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ) أي: في الدنيا، (مَسْرُورًا)، باتِّباع هواه، وبدنياه، ليس له همُّ الآخرة، (إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ): لن يرجع إلى الله"(٢). وعلى النقيض من ذلك ذكر الله تعالى بعض أسباب النجاة فقال:﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ الطور: ٢٦ - ٢٧، "أي: قال بعضهم لبعض: إنا كنا من قبل في الدنيا مشفقين خائفين من عذاب الله تعالى فمنَّ الله علينا بفضله، فغفر الصغائر، وترك المحاسبة على النِّعَم المستغرقة للأعمال"(٣).

٦-٧/ اعتدال الجو والشبع الشديد - حلاوة الدنيا والإكثار من الفضول:

تعتبر درجة الحرارة عنصرًا بالغ الأهمية في الحصول على نوم صحِّي، وهي من المؤثرات على النوم ونوعيته، فالجو الشديد الحرارة أو البرودة يصعب فيه النوم، أو قد يوقظ النائم ليتمكن الجسم من استئناف تنظيم درجة الحرارة، وقد أظهرت الدراسات أن درجة الحرارة المرتفعة قد تكون عائقا أمام الخلود الجيد للنوم، مما قد يضر بالجهاز المناعي والجهاز القلبي الوعائي والأداء الإدراكي والمزاج(٤).

---

(١) ينظر: روح البيان، الخلواتي (١٠/ ٣١٣)

(٢) تفسير الإيجي جامع البيان في تفسير القرآن (٤/ ٤٦٥)

(٣) الهداية الى بلوغ النهاية، مكي ابن أبي طالب (١١/ ٧١٢٨)

(٤) https//www . sawtbeirut . com

لكن الجو المعتدل يستدعي النوم، ولذلك تجد الناس في ظلال الأشجار وفي المصايف قد أخذهم النعاس، ويمثِّل اعتدال الجو بالنسبة للقلب انبساط الدنيا، عندما يُرْزَقُ العبد منها ما يُشْتَهى بالطبع من سائر الملذات، ويعضده قوله صلى الله عليه وسلم:"... فَوَاللَّهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُلْهِيَكُمْ كَمَا أَلْهَتْهُمْ"(١). قال ابن بطال في ثنايا شرحه للحديث: "...وكان صلى الله عليه وسلم يستعيذ من فتنة الفقر، وفتنة الغنى، فدلَّ هذا كله أن ما فوق الكفاف محنة، لا يسلم منها إلا من عصمه الله"(٢).

ولذلك نجد انبساط الدنيا على العبد وكثرة نعيمه فيها من المعينات على الغفلة، من عدة وجوه، منها:

- أنه ينشغل بما يتمتَّع به منها، من أنواع الشهوات المختلفة عن كثير مما ينفعه في الآخرة، قال تعالى عن الكفار: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ﴾ محمد: ١٢. ، هذا في مقابل ما ذكره عن المؤمنين في نفس الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ محمد: ١٢، في إشارة إلى أن وقت الكفار كان مستغرقًا بالتمتع والأكل؛ لَمَّا كان المؤمنون منشغلون بالعمل للآخرة.

- لأنه غالبًا ما يفكر في كيفية استثمارها وتنميتها، فينشغل بها ذهنيا، وقد يفضي به الحرص إلى اتخاذ وسائل محرمة للزيادة، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن رِّبٗا لِّيَرۡبُوَاْ فِيٓ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرۡبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ الروم: ٣٩.

- لأن كثرة النعم من أسباب العلو والتكبر على الخلق، قال تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ الكهف: ٣٤، فنعمة الثمر كانت سبب التعالي.

- لأن التفضيل على الخلق يوهم الإكرام والمنزلة عند الله تعالى، فيظن المكرم أن تفضيله سيمتد في الآخر، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾ الفجر: ١٥، وقال: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنَّا مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّجِعۡتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلۡحُسۡنَىٰ﴾ فصلت: ٥٠

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: مَا يُحْذَرُ مِنْ زَهَرَةِ الدُّنْيَا وَالتَّنَافُسِ فِيهَا (٨/ ٩٠) حديث رقم (٦٤٢٥)

(٢) شرح صحيح البخارى، ابن بطال (١٠/ ١٦٩)

٨/ الوجود وسط نائمين – صحبة الغافلين:

الإنسان مدنيٌّ بطبعه، وغالبًا ما يتأثَّر بمن حوله، فرؤية النائمين حول المستيقظ -خاصةً إن كان به نعاسٌ- تُغْريه للنوم، ولذلك اليقظة الطويلة وسط النائمين تحتاج إلى مقاومة ومغالبة أكثر من مدافعة النعاس بين مستيقظين، ولذلك كان لصلاة الليل منقبة على بقية النوافل، لأن ما يثقِّلُها وقوعها في وقت نوم، وفي وسط النائمين، فكانت أول أوصاف المتقين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ الذاريات: ١٥ - ١٧. وكذلك نوم القلب، يسهِّل، بل يُسْتَدعى في أوساط الغافلين، لأن الصاحب ساحب، والطبع سرّاق، ولذلك جاءت الأحاديث تترى في النهي عن مجاورة الكفار، ومخالطتهم، ومساكنتهم[١]. وكثرت الوصايا بتجنُّب مصاحبة الغافلين وأهمية لزوم اليقظين، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الأنعام: ٦٨، وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ الكهف: ٢٨.

٧/ الإرهاق والعمل المتواصل – عدم الترويح عن القلب بالمباح:

الإرهاق والتعب من العوامل التي ترغِّب في النوم، لأن الجسم يحتاج إلى قطع العمل المتواصل ليستعيد نشاطه، ولذلك جعل الله النوم قاطع لأعمال النهار لتحقيق هذا الهدف، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ النبأ: ٩، أي: راحة لأبدانكم، وسكوناً وانقطاعاً عن الحركات[٢]. والقلب كذلك يحتاج إلى بعض الاستجمام والراحة، ويدلُّ عليه قوله صلى الله عليه وسلم: "...يا حنظلة ساعة وساعة"[٣]. والمقصود من هذا الحديث أن يروِّح العبد عن قلبه بالمباح، لأن القلوب تمل وتسأم.

---

(١) ينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، الألباني (٧/ ٦٥٢)

(٢) بحر العلوم، السمرقندي (٣/ ٥٣٧)

(٣) أخرجه مسلم، كتاب: التوبة، باب: ساعة وساعة (٧/ ١١٤) برقم (٧٠٦٦)

جدول يسهِّل المقارنة بين نوم العين وغفلة القلب

العوامل المساعدة على نومة العين	العوامل المساعدة على غفلة القلب
١/ الظلام	الوجود في بيئة جاهلة (العلم نور يزعج القلب)
٢/ سكون الجسم	خلو القلب من العبادات القلبية (الخمول)
٣/ الهدوء وعدم الضوضاء	عدم وجود الزواجر (المواعظ تزعج القلب)
٤/ عدم وجود الهم المؤرق	عدم التفكر في العاقبة وجهل المصير
٥/ عدم وجود الخوف الطارد للنعاس (الأمن)	تغليب الرجاء على الخوف
٦/ اعتدال الجو	حلاوة الدنيا وخضرتها خاصة إن أوتيها العبد
٧/ الشبع الشديد	الإكثار من المباحات عمومًا (الفضول)
٨/ الوجود وسط النائمين	صحبة الغافلين
٩/ الإرهاق والعمل المتواصل	عدم الترويح عن القلب بالمباح[1]

من هذا العرض لسبب وكيفية الإصابة بالغفلة، والمتسبِّب، والعوامل المساعدة؛ نفهم أهمية السير إلى الله وإن كان ضعيفاً، لأنه يكون مُعيناً على تقوية القلب بزيادة فتحتي الغذاء، وتضييق فتحتي الداء، وهذا من هدايات قوله تعالى:﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ العنكبوت: ٦٩. وقوله تعالى:﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ هُدٗى﴾ مريم: ٧٦، وقد فَقِه السلف الصالح هذا المعنى وعُرِفَ في أقوالهم، منه ما نقله النجم عن الشافعي: "سيروا إلى الله عُرَجاً ومكاسير، ولا تنتظروا الصحة، فإن انتظار الصحة بطالة"[2].

(١) ينظر:آداب النفوس، المحاسبي (ص:١١٨)/ مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة المقدسي (ص: ٢٦)/ صيد الخاطر، ابن الجوزي (ص: ٢٢٤)/ الطب النبوي، ابن القيم (ص: ١٠٧)

(٢) ينظر: المقاصد الحسنة، السخاوي (ص: ٦٩٧)/ كشف الخفاء، العجلوني (١/ ٤٦٣)

المبحث الثاني: أقسام الغفلة وأعراضها وكيفية علاجها

المطلب الأول: أقسام وأنواع الغفلة:

أولًا – أقسام الغفلة

بالتتبع والسبر لآيات الكتاب العزيز نجد أن الغفلة لها أربعة أقسام رئيسة متداخلة، وكل واحدة منها تقود إلى التالية، بحيث يحدث التعانق بينها بشكل مدهش، وهي كالآتي:

القسم الأول– الغفلة عن الله تعالى:

لم ترد في القرآن الكريم بعبارة: "غفلة عن الله" وإنما الوارد "الغفلة عن آياته"، في إشارة واضحة، وهداية بيِّنة أن آيات الله دليلٌ قويٌّ على وجوده وعلى اتصافه بصفات الجلال والكمال التي توجب تعظيمه وتوحيده، قال تعالى ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ يونس:٩٢ وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ﴾ الأعراف: ١٤٦، والغفلة عن الله معناها: الغفلة عن معرفة الله تعالى، ولوازم ذلك وتوابعه[١]، وهناك طريقان لمعرفة الله:

الأول: التفكّر والتأمّل فِي آي الْقُرْآن، فإنها تهدي لمعرفة الله وتعظيمه، ومن أدلة ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٢٠٣ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٢٠٤ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ الأعراف: ٢٠٣– ٢٠٥، وقد جمع لفظ (بَصَآئِرُ) لأن القرآن أنواعاً من الهدى على حسب النواحي التي يهدي إليها، من تنوير العقل في إصلاح الاعتقاد وتسديد الفهم في الدين، والدلالة على طرق النجاح والنجاة، والتحذير من مهاوي الخسران[٢] (وَٱذْكُر) بكل ذكر من القرآن وغيره[٣].

---

(١) ينظر: الفوائد، ابن القيم (ص: ١٦٧)

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور (٩/ ٢٣٨)

(٣) نظم الدرر، البقاعي (٨/ ٢١٠)

الثاني: التفكّر فِي آياته المشهودة وَتَأمُل حكمته فِيهَا وَقدرته ولطفه وإحسانه وعدله وقيامه بِالْقِسْطِ على خلقه[1]. قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ الغاشية: ١٧-٢١.

والآيات واضحة الدلالة على أن النظر للمخلوقات من أعظم وسائل الوصول للخالق، وأنه من موانع الغفلة والنسيان بهداية قوله﴿فَذَكِّرْ﴾. وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ آل عمران: ١٩٠- ١٩١، وهذه الآيات زادت عن سابقتها بأن النظر في مخلوقات الله تعالى لا يوصل إلى الله فقط، بل يؤدي المعرفة المقرونة بالإجلال والتنزيه، والتي تُثْبتُ حكمته سبحانه وتثمر الخوف من عقابه وسؤال جنته. والآيات الأولى مكية والثانية مدنية، ويشير ذلك إلى أهمية الزيادة في معرفة الله في جميع مراحل النضج الإيماني، وفي كل مدارج السالك.

* وجماع التدبُّر للآيات المتلوة، والنظر في الآيات المشهودة هو: الْفِقْه فِي مَعَاني أَسْمَائِهِ الْحسنى وجلالها وكمالها وتفرّده بها، قال سبحانه: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الحشر: ٢٢- ٢٤ ، وهنا تناسق عجيب وتسلسل مهيب للمعاني إذ سبق هذه الآيات قوله: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الحشر: ٢١، وسبق هذه بآية قوله علا وتقدَّس: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ الحشر: ١٩. أي: نَسُوا حقوقَهُ تعالَى، وما قدرُوه حقَّ قدرِهِ، ولم يراعُوا مواجبَ أوامرِهِ ونواهِيه حقَّ رعايتِهَا (فَأَنسَىٰهُمْ) بسببِ ذلكَ (أَنفُسَهُمْ) أي: جعلَهُم ناسينَ لها حتَّى لم يسمعُوا ما ينفعُها ولم يفعَلُوا ما يخلِّصُها[2].

---

(١) ينظر: شرح القصيدة الدالية، الكلوذاني (ص: ٤٨)/ الفوائد، ابن القيم (ص: ١٦٧)

(٢) إرشاد العقل السليم، أبي السعود (٨/ ٢٣٢)

ومعرفَة الله سُبْحَانَهُ نَوْعَانِ:

الأولى: معرفَة إِقْرَار وَهِي الَّتِي اشْترك فِيهَا النَّاس الْبر والفاجر والمطيع والعاصي وهي معرفة العوام.

الثَّانِية: معرفَة توجب الْحيَاء مِنْهُ، ومحبته، وَتعلُّق الْقلب بِهِ، وَهَذِه هِيَ معرفة الخواص[1].

أما لوازم معرفة الله فهي: محبته والخوف منه ورجاء رحمته، وتوابع معرفة الله الاستجابة له في الأمر والنهي[2]. فإذا غفل العبد عن الله كان تائهاً أخرقاً مخذولاً وعُوقِبَ بالغفلة عن نفسه، قال تعالى:﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ الحشر: ١٩.

القسم الثاني – الغفلة عن النفس:

تعني الغفلة عن تحقيق الكمال الحقيقي للنفس، والذي هو تمام المحبة لخالقها وطاعتها له، فتنصرف إلى ضد ذلك. وضد ذلك هو الاجتهاد في تحقيق الكمال الصوري، وهو الفضائل المنفصلة عنها كالملابس والمراكب والمساكن والجاه وَالْمَال فَتلك فِي الْحَقِيقَة عوار أعيرتها مُدَّة ثمَّ يرجع فِيهَا الْمُعير. وكَمَال النَّفس الْمَطْلُوب مَا تضمن أَمريْن:

أَحدهمَا: أَن يصير هَيْئَة راسخة وَصفَة لَازِمَة لَهُ.

الثَّانِي: أَن يكون صفة كَمَال فِي نَفسه. وَمَتى عدم العبد ذَلِك لم يبْق فِيهِ إِلَّا القوى الْبَدَنِيَّة النفسانية الَّتِي بهَا يَأْكُل وَيشْرب وينكح ويغضب وينال سَائِر لذاته ومرافق حَيَاته وَلَا يلْحقهُ من جِهَتهَا شرف وَلَا فَضِيلَة بل خساسة ومنقصة إِذْ كَانَ إِنَّمَا يُنَاسب بِتِلْكَ القوى الْبَهَائِم ويتصل بجنسها وَيدخل فِي جُمْلَتهَا وَيصير كأحدها وَرُبمَا زَادَت فِي تناولها عَلَيْهِ واختصت دونه بسلامة عَافِيَتهَا والأمن من جلب الضَّرَر عَلَيْهَا[3]، وهؤلاء من قال الله تعالى فيهم:﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ الأعراف: ١٧٩

---

(١) ينظر: الفوائد، ابن القيم (ص: ١ ٧٠)

(٢) ينظر: جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي (١/ ٤٧٣)

(٣) لسان العرب، ابن منظور (٥/ ١٢)

فإذا لم يحدث كمال النفس الحقيقي اغترَّت، والاغترار من غرًّ، تقول: غرَّ الرجل غرارة وغِرَّة إذا جِهِلَ الأمور وغَفَلَ عنها، فهو غِرٌّ، وغرَّه غرورًا أطمعه بالباطل، وغرَّته الدنيا فهي غَرور وهو مَغْرور وغَرير، وما غرَّكَ بكذا أَي: مَا أخدَعَك وسوَّل لَكَ حَتَّى أَضَعْتَ مَا وَجَبَ عَلَيْكَ![1].فإذا اغترَّ الرجل غَفَلَ عن حقيقة الدنيا، لأنه يعرف الظواهر ويجهل البواطن، وهذه نتيجة حتمية للغفلة عن النفس..

القسم الثالث – الغفلة عن حقيقة الدنيا:

وتعني الجهل بحقيقة الدنيا والانخداع بزخرفها الزائل وزينتها الفانية، والسعي في تحصيلها باستفراغ الوسع وإجهاد البدن، قال تعالى:﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ الأنعام:٧٠، وقال:﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ الأعراف:٥١. ولأن الدنيا والآخرة ضرتان ولا تجتمع إرادتهما معاً في قلب كما في قوله:﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝١٨ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ الإسراء: ١٨- ١٩؛ فإذا غَفَلَ العبدُ عن حقيقة العاجلة لزم أن يغفل عن الآجلة، لأنَّه لا بد له من ميل لإحداهما، وتعلُّق قلبه بها والعمل لها، ولذلك ارتبط الجهل بحقيقة الدنيا والوقوف على ظاهرها بالغفلة عن الآخرة كما في قوله:﴿يَعْلَمُونَ ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ﴾ الروم: ٦.

القسم الرابع – الغفلة عن الآخرة:

الغفلة عن الآخرة تعني الغفلة عن تذكرها واستحضارها والعمل الجاد الذي ينجي صاحبه فيها، لأنه منغمس في العمل للعاجلة، ومشغول بتحصيل الكمال الصوري فيها حتى تاتي آخرته الخاصة بموته، أو آخر الحياة الدنيا عامة، وتشمل هذه الغفلة الشك أو النسيان والسهو عن حقائق الآخرة وما فيها من النعيم لأولياء الله تعالى والعذاب لأعدائه، وتظهر صورة الغفلة عن الآخرة في عدد من آي الكتاب منها قوله تعالى:﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ق: ٢٢.

---

(١) ينظر: الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي، الأزهري (ص: ٢٤٨)/ لسان العرب، ابن منظور (٥/ ١٢)

وقد جُمِعَت هذه الأقسام الأربعة للغفلة في آيةٍ واحدة، ولكن الإبتداء فيها بالغفلة عن الآخرة ثم عن حقيقة الدنيا ثم عن النفس ثم الغفلة عن الله. وهي قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا　　وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا　　وَٱطۡمَأَنُّواْ بِهَا　　وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ﴾ يونس: ٧

غفلة عن الآخرة　　غفلة عن حقيقة الدنيا　　غفلة عن النفس　　غفلة عن الله تعالى

الأولى والأخيرة ظاهرتان لفظاً، أما الثانية فلأنه لا يرضى عن الدنيا إلا من كان جاهلاً بحقيقتها، فما هي إلا ظلٌ زائلٌ وجِيفَةٌ مُسْتَحيلةٌ، فلما انخدع بظاهرها رَضِيَ بها، كالبعرة في كيسٍ برَّاقٍ، يظن من أُعْطِيَت له أنها جوهرة ثمينة. وأما الثالثة فلأنه لا يطمئن إلى الدنيا إلا من غفل عن تحقيق الكمال الحقيقي لنفسه، وعمد إلى تحصيل الكمال الصوري من الفضائل المنفكة عن ذاته من دنياه، مأكلاً ومسكناً، ومركباً، فاطمأنَّ بها، واطمأنَّ ولها.

ومن الملاحظ من خلال عرض أقسام الغفلة أنها مرتبطة ارتباط تلازم، بحيث لا تنفك ولا تتجزأ ، فلا يُتَصوَّر وجود غفلة عن النفس بدون غفلة عن الله، ولا غفلة عن الآخرة بدون غفلة عن حقيقة الدنيا، ولكن يمكن وجود قوة في أحد هذه الأقسام أكثر من الأُخريات، أي: اجتماعهن من حيث الوجود، وافتراقهن من حيث النِسَب..

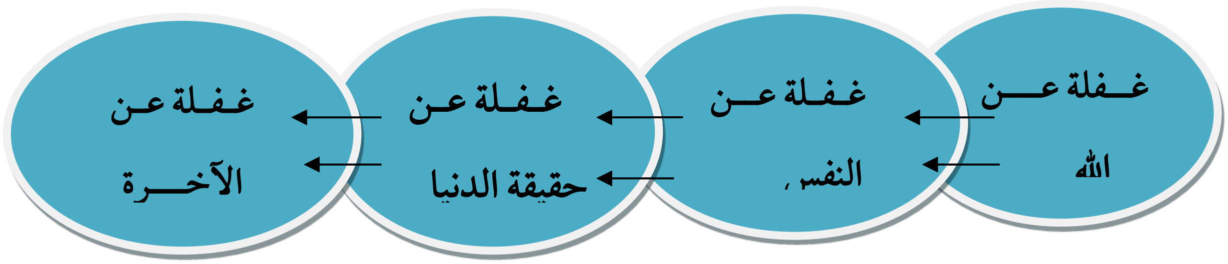

رسم يوضح التعانق بين أقسام الغفلة

ثانيًا – أنواع الغفلة:

الغفلة بأقسامها الأربعة يمكن أن تُصنَّف بسبعة اعتبارات مختلفة كالنحو التالي:

١/ بالنظر إلى زمن الغفلة وفترتها تنقسم إلى:

- عابرة (وإن تكررت)، وهي السَّقطات التي تأتي للمؤمن فيعصي، ولكنه سرعان ما يفيق من غفلته فيتوب، وهذه يصورها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾ آل عمران: ١٣٥، قال السعدي: "أي: إذا صدر منهم أعمال سيئة كبيرة، أو ما دون ذلك، بادروا إلى التوبة والاستغفار، وذكروا ربهم، وما توَّعد به العاصين ووعد به المتقين، فسألوه المغفرة لذنوبهم، والستر لعيوبهم، مع إقلاعهم عنها وندمهم عليها"(١).

- مستمرة (قد تكون مدى العمر) وهذه غفلة كل من عاش ومات على الكفر، ولم ينتفع من طول حياته في الدنيا، حتى وجد جزاءه في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَهُمۡ يَصۡطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ فاطر: ٣٧، قال الماتريدي: " سألوا ربهم الإخراج عنها، ليعملوا غير الذي عملوا، فاحتج عليهم: (أَوَلَمۡ نُعَمِّرۡكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ) أي: أولم نعمركم فيها من العمر مثل العمر الذي يتَّعِظ به من يتَّعِظ ، فهلا اتَّعظتم فيه؟!"(٢)..

٢/ بالنظر إلى تجذُّر الغفلة وعمقها:

- غفلة عميقة، صاحبها في سباتٍ بعيد، ومهما يوقظ ويذكَّر فإنه لا يرتدع ولا يستيقظ، ومثالها قوم نوح عليه السلام، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ...﴾ وبعد كل هذا الاجتهاد، واستفراغ الوسع في الدعوة؛ كان ردهم الرفض والعصيان: ﴿قَالَ نُوحٞ رَّبِّ إِنَّهُمۡ عَصَوۡنِي وَٱتَّبَعُواْ مَن لَّمۡ يَزِدۡهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارٗا﴾ نوح: ٥ – ٢١.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص: ١٤٩)

(٢) تأويلات أهل السنة (٨/ ٤٩٣)

- غفلة سطحية (سريع الإفاقة منها إذا نُبِّه) وصاحب هذه الغفلة غالبًا غفلته سريعة عابرة، وتكون لأرباب العزائم والهمم، وربما لا تكون غفلة توجب الذنب، ولكنها تُدْني العبد عن الكمال اللائق، ومنها قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ النور: ٢٢، فالمشهور من الروايات أنها نزلت في شأن مسطح وكان ابن خالة أبى بكر الصدّيق رضى الله عنهما، وكان فقيرًا وأبو بكر ينفق عليه، فلمَّا فرط منه ما فرط في حادثة الإفك؛ آلى أبو بكر أن لا ينفق عليه، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم الآية على أبى بكر، فقال: بلى أحب أن يغفر الله لي، ورجع إلى مسطح نفقته وقال: والله لا أنزعها أبدًا[١].

٣/ بالنظر إلى استغراق الغفلة (مساحتها بالنسبة لأمور الدين):

- شاملة لمعظم الأوامر والنواهي، كالتي جاءت في قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ المدثر: ٤١ - ٤٦، فلما سُئِلوا ذكروا علة دخولهم النار بإفساد قوتهم العلمية، وكان ذلك منبهاً على فضيلة العلم، ولما نفوا الوصلة بالخالق، أتبعوه إفساد القوة العملية[٢]. ولَّما كانت حالتهم فساد وليس ضعف فقط، وفي القوتين؛ كانت الغفلة شاملة ومستغرقة حقوق الله تعالى وحقوق العباد، وكان أصحابها مجرمين. وهذا النوع من الغفلة كثير في واقع الأمة المعاصر، حيث نجد من هو مفرِّط في الالتزام بكثير من الأوامر، وهو جرئ في فعل كل أنواع الذنوب، فجمع بين الشرك والظلم والفاحشة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ الفرقان: ٦٨، وهذه الآية جمعت أُصُول الْمعاصِي كلهَا كِبَارهَا وصغارها، وهي: تعلق الْقلب بِغَيْر الله، وَطَاعَة الْقُوَّة الغضبية، وَالْقُوَّة الشهوانية، وَهِي الشّرك وَالظُّلم وَالْفَوَاحِش[٣].

---

(١) ينظر: جامع البيان، الطبري (١٧/ ٢٢٥) / الكشاف (٣/ ٢٢٢)/ أسباب النزول، الواحدي (ص:٦١٥)

(٢) ينظر: نظم الدرر (٨/ ٢٣٦)

(٣) ينظر: الفوائد، ابن القيم (ص: ٨١)

- جزئية في فرع من فروع الشريعة، وهذه لم أجد ما يشير إليها في القرآن الكريم، ولكن يشير إليها حديث، وهو الرجل الذي كان يشرب ويقام عليه الحد، ففعل ذلك مرات، فَأُتِيَ بِهِ يومًا فأمرَ بِهِ فَجُلِدَ، فقالَ رجُلٌ من القومِ: اللَّهُمَّ العَنهُ، ما أكثرَ ما يُؤتَى بِهِ؟ فقال النَّبيُّ صلَّى الله عليهِ وسلَّمَ: «لا تَلْعنُوهُ، فواللهَّ ما عَلِمتُ إنَّه يُحِبُّ الله ورَسُولهُ"[1]. وهذا النوع من الغفلة يُصاب به من كان له ضعف في أحد قوَّتيه الغضبية أو الشهوانية، فيصعب عليه ترك الذنوب الناتجة عن ضعف قوته، وهذا لا ينفي عنه الإيمان والاستقامة، ومحبة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم في العموم.

٤/ بالنظر إلى ذات الغفلة:

- بسيطة (غفلة من يرى غفلته ويعترف بها) وهذه كغفلة المذنب المعترف، الذي لا يبرر معاصيه ولا يُنكرها، مثل الذين حكى الله عنهم في قوله: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ التوبة: ١٠٢، وكذلك من يعترف ضمنيًّا بسؤال الله تعالى المغفرة..

- مركَّبة (غفلة الغافل الذي يرى نفسه يقظ)، كمن يرى أنه مستقيم وهو في غاية الاعوجاج، ويمثِّلها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ البقرة:١١- ١٢

٥/ بالنظر إلى الغافلين من حيث النوعية:

- غفلة عوام، وهذه الغفلة الطاغية من حيث العدد على معظم الناس، ودليلها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ يونس: ٩٢ ، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ يوسف: ١٠٣.

- غفلة خواص (المتدينون) وكلّ من الغفلة العابرة والسطحية غفلة متدينون، الأصل فيهم الإيمان والاستقامة، والبشرى لأصحاب هذه الغفلة بالتوبة والمغفرة، ويدلُّ عليها من القرآن الكريم قوله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ الأعراف: ٢٠١، وغفلة الخواص في واقعنا في تزايد، فكثير ممن يُنْسَبون إلى التدين لديهم تقصير واضح في التطبيق..

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الحدود، باب: مَا يُكْرَهُ مِنْ لَعْنِ شَارِبِ الخَمْرِ (٨/ ١٥٨) حديث رقم (٦٧٨٠)

- غفلة خواص الخواص (العلماء الربانيون): وهؤلاء غفلتهم قد تُسبِّب لهم النقص عن الكمال فقط، أو فعل الأدنى وتفويت الأعلى، أو ما شابهه من صغائر الأمور.

٦/ بالنظر إلى الغافلين من حيث العددية:

- فردية ، هي غفلةُ فردٍ أو أفراد في مجتمع، سواء كان مجتمعًا صغيرًا أو كبيرًا، وهذه إن كانت سطحية فإن الرفقة غالبًا ما يكونون سببًا في إزالتها، أما إن كانت عميقة فإن المجتمع المحيط لا يفيد.

- جماعية: وهي غفلة مجموعات ومجتمعات في بعضٍ من أمور الدين، كغفلة الجماعات الدينية والفرق التي انحرفت عن الصرط المستقيم في بعض المسائل.

- أُممية (أي أكثرية الأمة غافلة) وهذه كالغفلة عن بعض القضايا الكبري التي تتعلق بالأمة كغفلة الكثيرين عن أهمية الوحدة الإسلامية والعمل على تحقيقها، والغفلة عن وجوب التناصر في الحق، فيحدث التخاذل واللامبالاة في قضايا مصيرية كقضية تحرير الأقصى، وكالغفلة عمَّا يتعلق بالمرأة من خصائص ووظائف وحقوق وواجبات وفق التصور الشرعي، وسواها كثير..

٧/ بالنظر إلى موضوعها:

- غفلة علمية (في المنهج أو النظرية) وهذه غالبًا يتبعها الغفلة في التطبيق، لأن العلم يسبق القول والعمل، لقوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ﴾ محمد: ١٩، ومثالها غفلة الكثيرين عن تعلم أبسط أمور الدين، مع أن أحدهم قد يكون أستاذًا جامعيًا في أحد التخصصات المعرفية الطب والهندسة والإدارة وغيرها.

- غفلة عملية (في التطبيق) وهي إما غفلة عن ترك العمل أو بعضه ؛ وإما عمل على غير هدي النبي صلى الله عليه وسلم، كمن عبدوا الله تعالى بالبدع، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا﴾ الكهف: ١٠٣ – ١٠٤، وهؤلاء يدخل فيهم الذي يُبْطِل معروفه في الدنيا مع أهلها بالمنَّة وطلب الشكر، ويُبْطِل طاعاته بالرياء، كما أبطلَ عبادته بالسير على غير دليل[1].

---

(١) ينظر: حقائق التفسير، السلمي (١/ ٤١٨)

المطلب الثاني: أعراض وعلامات الغفلة:

للغفلة أعراض يحسُّ بها الغافل -إن لم تكن غفلته مركبة-، وعلامات ظاهرة قد يراها الغير، وهي كلها إما علمية أو عملية أو كلاهما، والآيات التي تحدَّثت عن الغفلة لم تفصِّل في الأعراض، وإنما أتت مجملة، واستنانًا بسنة القرآن الكريم فإني سأذكرها هنا مجملة، وهي كالآتي:

أولًا - أعراض تتعلق بالجانب العلمي:

- الجهل: والمقصود الجهل بالله تعالى وبكتابه وبشرعه، وقد يكون الغافل له علمٌ غذير، وصاحب تخصصات عالية في العلوم والمعارف الدنيوية، كعلم الفلك والطب وغيرهما، ولكنه أُميّ أو شبه أُميّ في علوم الدين، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ البقرة: ٧٨.

- قلة العلم: يكون علمه أقلَّ من الحد الأدنى المطلوب، والمأمور به في قوله صلى الله عليه وسلم: "طلب العلم فريضة على كل مسلم"[١]. وهو ما تصح به العقيدة والعبادة والمعاملة[٢]، فقد يكون جاهلًا بأسماء الله تعالى وأوصافه، واقعًا في الشرك من حيث لا يعلم، أو جاهلًا بأركانِ الصلاة وصلاة المسبوق، أو البيوع المحرَّمة وأنواعٍ من الربا، وهذا الصنف كثيرٌ في الأمة.

- سطحية العلم أو عدم الرسوخ فيه: أن يكون ممن يهتمَّ بالعلم، ولكنه لا يتعمَّق فيه، قد يحفظ القرآن وكثير من السنة والمتون وأقوال السلف، ولكن مستوى الفهم لا يتناسب مع ذلك، لأنه لا يركِّز على الفهم، وهذا كثيرٌ في طلاب العلم. والعلم السطحى يوصل إلى نتائج تختلف عن النتائج التي يوصل إليها التعمق في العلم[٣]، والرسوخ يورث الإيمان، ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ آل عمران: ٧

---

(١) أخرجه ابن ماجة، باب: فضل العلماء والحث على طلب العلم (١/ ١٥١) حديث رقم (٢٢٤) وقال المحقق شعيب الأنؤوط: "حديث حسن بطرقه وشواهده -فيما ذهب إليه المزي والسيوطي وغيرهما من أهل العلم، دون قوله: "وواضع العلم عند غير أهله ... " إلخ، فضعيف جدًا.

(٢) ينظر: تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة، ابن عمر البيضاوي (١/ ١٥٥)

(٣) الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، عبد الصمد (ص:٩٥)

- غزارة العلم مع وجود الآفة: وهذا لمن بلغوا مقامًا عاليًا في العلم والفهم، وربما كانوا ممن يُقَدَّمون في الدعوة والتعليم، ولكنهم مصابون بداء العجب أو الكبر، أو الرياء، أو غيرها من الآفات المهلِكة.

ثانيًا - أعراض تتعلق بالجانب العملي:

- ضعف الاستجابة، وهي إما في الأوامر، أو في النواهي.

* في المأمورات، عدم الإتيان بها كلَّها أو جلَّها قد لا يصوم ولا يصلي، ولا يحج، وهذه أركان الإسلام، فتركه لغيرها واردٌ ومتوقَّع، وهو من التفريط، ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ الزمر: ٥٦

- قِلَّة في عددها: فيفعل القليل من المأمورات، وقد يقتصر على بعض أمهات العبادات فقط.

- ضعف في وصفها المطلوب: قد يأتي بمعظمها، ولكن مستوى الأداء ضعيف جدًّا، صلاة بلا خشوع، وصوم عن المفطرات الحسية فقط، وحجٌّ مع رفع الصور في كل المشاعر، وغير ذلك.

- كثرتها مع وجود الآفة: قد يلتزم بكلِّ الواجبات، ويزيد المستحبَّات، ولكنه، مغرورٌ بطاعته، وربما يخالف السنة، وربما كان مرائيًا، أو معجبًا بفعله، وكلاهما محبط لثواب الفعل، قال مطرف بن عبد الله بن الشخير قال: "لأن أبيت نائما وأصبح نادما، أحب إلي من أن أبيت قائما، فأصبح معجبا"(١).

* في المنهيات، كثرة انتهاكها: فيجمع بين أصناف الذنوب والفواحش المختلفة، ولا يترك صغائر ولا كبائر، لا محرمات ولا مكروهات، فهو مستودعٌ لكلِّ أو جلِّ أنواع المخالفات.

- قلة في اقترافها: لا يسرفُ على نفسه في ارتكاب الفواحش والقاذورات، وربما لا يفعل المحرمات الظاهرة رأسًا، فإن خالف ففي المكروهات أو بعضها.

- ترْكُها جميعاً مع وجود الآفة : ينزِّه نفسه عن كلِّ كبيرةٍ وصغيرة من المعاصي الظاهرة، ويحرص على ذلك كل الحرص، ولكنه ربما يمنُّ على ربه في ذلك، أو يتسخط إن نزل به المكروه، لاعتقاده أنه لا يستحق أن تنزل عليه المصائب، بل يستحق الشكر والإكرام من ربه.

---

(١) الزهد والرقائق، ابن المبارك (١/ ١٥١)

ثالثاً – أعراض ناتجة عن الخلل في الجانبين:

أكثر حالات الإصابة بالغفلة هي في الجانبين معًا، ولذلك نجد معظم المصابين بالغفلة يجتمع عندهم ضعف العلم وضعف العمل، أو الأعراض المتعلقة بالجانب العلمي، والمتعلقة بالجانب العملي، ولكن من كانت إصابته قوية في الجانبين، وغفْلُته عميقة، فإنه بالإضافة إلى ما ذُكِرَ يُبْتَلى بشدة التعلق بالدنيا والركون إليها والإطمئنان بها وإليها، لأن الصوم عن العاجلة والزهد فيها لا يتأْتَّى إلا لِمَن عَمُقَ علمه فعرف حقيقتها بجلاء؛ وقَوِيَت إرادته فامتنع ورغِب عنها بكامل اختياره، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ السجدة: ٢٤، قال الطبري في تفسيرها: "(لَمَّا صَبَرُوا) قال: عن الدنيا، وقوله: (وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) يقول: وكانوا أهل يقين بما دلَّهم عليه حججنا، وأهل تصديق بما تبيَّن لهم من الحقّ، وإيمان برسلنا، وآيات كتابنا وتنزيلنا"[1].

الشاهد من الآية الكريمة كما وضح من التفسير أنَّ الإمامة في الدين تكون لمن جمع بين اليقين بالآيات –وهذا عميق العلم صحيح الفهم– وبالتَّحلي بصفة الصبر التي بها يقوم بالطاعات، ويترك المحرمات، ولا يتعلق قلبه بالدنيا ، ويمتنع عن كلِّ ما له تأثيرٌ سالبٌ على صلته بالله تعالى. ولذلك لا يُتَصوَّر أن يكون المتكالبين على الدنيا من الأئمة في الدين..

وهذه الأعراض جميعها تتفاوت لدى الأفراد بحسب نوع الغفلة، ودرجتها، وقوَّتها وعمقها. وهي موجودة من عهد النبي صلى الله عليه وسلم، وستظل إلى قيام الساعة، إلا أن غفلة الأوائل كانت قليلة وبسيطة وسطحية، وتميزوا بأن إفاقتهم من الغفلة تكون قوية ومستمرة، كيقظة الغامدية التي زنت في لحظة غفلة، ثم لما أفاقت وتابت قال عنها النبي صلى الله عليه وسلم: "لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ، وَهَلْ وَجَدْتَ تَوْبَةً أَفْضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بِنَفْسِهَا للهِ تَعَالَى"[2]. أما غفلة المتأخرين فغالبًا غفلة مركبة وعميقة وجماعية ومستمرة. –والله المستعان–.

---

(١) جامع البيان (٢٠/ ١٩٥)

(٢) أخرجه مسلم، كتاب: الحدود، باب: من اعترف على نفسه بالزنا (٣/ ١٣٢٤) حديث رقم (١٦٩٦)

المطلب الثالث: علاج الغفلة:

قبل وصف العلاج لا بد من الاقتناع بأمرين، والاتفاق على أمرٍ واحد، أما الأولان:

- أن تحقيق المثالية وإيجاد الفرد المسلم الموصوف في القرآن والسنة، وكذلك المجتمع والأمة ليس مستحيلاً، بل هو من الأهداف القابلة للتحقُّقِ إن سُلِكَ لها الطريق الصحيح بإذن الله.

- أن الأمراض المعنوية (كالحسد والرياء مثلاً) لا يَتضرر الفرد إن تناول أدويتها وهو غير مُصابٍ بها، بل ذلك يزيده عافيةً وبُعْداً عنها، فيكون بمثابة الوقاية والتحصين، بعكس الأمراض الحسية التي إذا تناول الشخص أدويتها وهو غير مصاب بها فإنها غالباً ما تسبب له ضرراً، ولو بكثرة الاستعمال، وهذا يقودني للقول بأهمية تناول دواء الغفلة لمن يرى أنه على أتمِّ وأكمل حالات اليقظة.!!

- أما الأمر الذي يجب ان يُتَفَق عليه فهو معيار القياس الذي نحتكم إليه لتشخيص الغفلة، لأنه إن لم يتوحَّد هذا المعيار فما يراه البعض غفلة قد يراه آخرون يقظة! وهكذا في جميع العلل المعنوية.

أما المعيار الذي يجب ألَّا يُخْتَلف عليه فهو النبي صلى الله عليه وسلم لتشخيص غفلة الفرد، لقوله تعالى:﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ الأحزاب:٢١، ومجتمعه من الصحابة لتشخيص غفلة المجتمع، لقوله:﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ وأمته الأولى صلى الله عليه وسلم، والأمة الموصوفة في القرآن الكريم لتشخيص غفلة الأمة، لقوله عزَّ وجل:﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ آل عمران: ١١٠، هذا ما يجب أن يكون عليه القياس، وبه المقارنة.

فإن حصل الألتفاف حول هذه الأمور الثلاثة (القناعَتين والمعيار) فإعادة الأمة إلى سابق عهدها أفراداً ومجتمعات وفق التصور المرسوم في الكتاب والسنة ممكنٌ، ويسيرٌ، بإذن الله.

إجمالًا فإن أي مرض يعالج بضده[1]، فإزالة الغفلة تكون بتحقيق اليقظة الكاملة للقلب.. فما اليقظة؟ وكيف نحوِّل القلب من حالة الغفلة إلى حالة اليقظة الكاملة؟.

---

(١) ينظر: الطب النبوي، ابن القيم (ص: ٤٠)

أولًا – تعريف اليقظة:

الغفلة هي أول مهاوي الساقطين، وأول عتبات الهابطين، وفي الاتجاه المعاكس فإن اليقظة هي أول مدارج السالكين، وأول منازل السائرين، عرفها الهروي فقال: "اليقظة هي القومة لله هِيَ من سنة الْغَفْلَة، والنهوض من ورطة الفترة، وَهِي أول مَا يَسْتَنِير قلب العَبْد بِالْحَيَاةِ لرؤية نور التَّنْبِيه"(١).

وقد استنبط هذا التعريف من قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ سبأ: ٤٦

وعرَّفها ابن القيم فقال: "اليقظة هي انزعاج القلب لروعة الانتباه من رقدة الغافلين"، ثم زاد على التعريف تعليقًا فقال: "ولله ما أنفع هذه الروعة، وما أعظم قدرها وخطرها، وما أشد إعانتها على السلوك! فمن أحسَّ بها فقد أحسَّ والله بالفلاح، وإلا فهو في سكرات الغفلة، فإذا انتبه شمر لله بهمَّته إلى السفر إلى منازله الأولى، وأوطانه التي سبي منها"(٢).

ويُفْهمُ من هذين التعريفين أن أفضل، وأتم، وأكمل حالات اليقظة للقلب؛ يتَّصف فيها بسبعة أوصاف في أعلى مستوىً لها، فإن قلَّت انخفض معها مستوى اليقظة، والأوصاف هي:

١/ الإخلاص ، ويفهم من قوله: "القومة لله".

٢/ حركة القلب، يفهم من كلمة "القومة" و"النهوض".

٣/ استنارة القلب بقوة تشْبه شعاع الشمس، تفهم من " أول مَا يَسْتَنِير قلب العَبْد".

٤/ حياة القلب حياة كاملة ، يفهم من: "بِالْحَيَاةِ".

٥/ الرؤية الواضحة والقوِّية للمعاني التي أحدثت الحركة ولغيرها .

٦/ الإنزعاج الذي يُذْهِب النوم، ويطرد النعاس..

٧/ الإحساس بالمتعة واللذة في السير إلى الله..

---

(١) منازل السائرين (ص: ١١)

(٢) مدارج السالكين (١/ ١٤٢)

وكما هو الحال في نومة العين فإن من يستيقظ بهدوء قد يكون في عينيه بقايا نعاس، أو قابلية لمعاودة النوم ولو بعد حين، ولكن من يستيقظ على صاعقةٍ أو انفجارٍ ضخم؛ فإنه يستيقظ بانزعاج، ويطير معه أدنى نعاس أو رغبة في النوم، وهذا بالضبط ما نريد أن نفعله بالقلب، يقظة بإزعاجٍ بالغ..

أما أسباب حدوث اليقظة فهي كثيرة متعدِّدة، ومعرفتها مهمِّة لكل من يبحث عن اليقظة، ليعرف كيف يستجلب اليقظة، وكيف يحافظ عليها، وقد ذكر بعضها ابن الجوزي فقال:

"تفكَّرتُ في سبب هداية من يهتدي، وانتباه من يتيَّقظ من رقاد غفلته، فوجدت السبب الأكبر اختيار الحق عز وجل لذلك الشخص، كما قيل: إذا أرادك لأمر، هيَّأك له. فتارة تقعُ اليقظة بمجرد فكرٍ يوجِبُه نظر العقل، فيتلمَّح الإنسانُ وجود نفسِه، فيعلم أن لها صانعًا، وقد طالبه بحقِّه، وشُكْرِ نعمَتِه، وخوَّفه عقابَ مخالفته، ولا يكون ذلك بسببٍ ظاهر. ومن الناس من يجعل الخالق سبحانه –لذلك السبب الذي هو الفِكْرُ والنَّظر- سببًا ظاهرًا، إما من موعظةٍ يسمعها، أو يراها، فيحرِّك هذا السبب الظاهر فِكْرة القلب الباطنة، ثم ينقسم المتيقظون... ومن الصفوة أقوامٌ، مُذ تيقَّظوا ما ناموا، ومُذْ سلكوا ما وقَفوا، فهمُّهم صعودٍ وترقٍّ، كلما عَبروا مقامًا إلى مقام؛ رأوا نقصَ ما كانوا فيه، فاستغفروا، ومنهم: من يرقى عن الاحتياج إلى مجاهدة: إما لخسَّةِ ما يدعو إليه الطبع عنده، وإما لشرَفِ مطلوبه، فلا يلتَفِتُ إلى عائق عنه"[1].

والملاحظ أن أول اليقظة فكر القلب، أيًّا كان المثير لهذا الفكر، وفِكْر القلب يُوصِلُ إلى حقائق تبهره، وتزعجه، وتقوِّي عين القلب، وسمع القلب، وتوضِّحُ له الرؤية، فيرى كل الأشياء بقوة، ودقة، كما أنَّ الإزعاج والنور معًا يؤديان إلى إذهاب النعاس منه، فيستيقظ بقوة تتناسب مع قوة الفكرة، ومع قوة الحقائق التي تفكَّر فيها..

ومن هنا تبدأ رحلة العلاج العملية، التفصيلية المتكاملة التي تتكون من ثلاثة مسارات..

---

(١) صيد الخاطر (ص: ٣٦٦)

ثانيًا – المسارات الثلاثة المتوازية لعلاج الغفلة:

المسار الأول:

تجنُّب العوامل التي تساعد على الإصابة بالغفلة، ويدلُّ على هذا قصة قاتل التسعة وتسعين نفسًا، ونصها: أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: " كان فيمن كان قبلكم رجلٌ قتل تسعةَ وتسعين نفسًا، فسأل عن أعلم أهلِ الأرض فدُلَّ على راهبٍ، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا، فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله، فكمَّل به مائة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على رجلٍ عالمٍ، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟ فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا، فإنَّ بها أناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك، فإنها أرض سوء..."[1].

والشاهد أن العالم فقِهَ بتوفيق الله له، وبسبب نور بصيرته أن من بلغ أن قتلَ مائة نفس لا بد أن يكون في بيئةٍ غير صالحة، لا تأمره بمعروف، ولا تنهاه عن منكر، ولا تأخذ بيده وتعينه على تحقيق الاستقامة. وصحبة الغافلين، أو الوجود في بيئة غافلة من الأسباب المساعدة على حدوث الغفلة، أو الاستمرار فيها، خاصة لمن كان به ضعف في الإرادة –وإن كان صادقًا– وعلى ذلك فالبعد عن كلِّ الأسباب المساعدة على الغفلة من المعينات المهمة على تحقيق اليقظة، أو تقليل احتمال التردِّي عنها.

والحق أن العبد إن كان صادقًا في رغبته، وجادًّا في إرادته اليقظة والاستقامة؛ فإنه لا يتردَّدُ في البعد عن كل ما يعيق توبته، كما فعل قاتل التسعة تسعين نفسًا بتركه لقريته. وهذا يشبه تنظيف البيئة بالمريض وإزالة عوامل المرض الخارجية، لضمان عدم تكرار الإصابة بعد العلاج..

المسار الثاني:

إجراء ما هو أشبه بعملية القلب المفتوح، حيث سنفتحُ بابي العلم والموعظة بقوة، فيُغْلِقُ بابا الشبهة والشهوة بنفس القوة، لأن التناسب بينهما عكسي ..

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب: التوبة، باب: باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله (٤/ ٢١١٨) حديث رقم (٢٧٦٦)

وتَتَمثَّلُ العملية الجراحية في إدخال العلم والموعظة بقوة تدفع ما في القلب من الشبهات والشهوات (تفريغ وتخلية)، ثم تغلق بابهما تماماً، فلا يَلِجَا من جديد، (وقاية) بل يصتدما بحائطٍ منيعٍ لا يتشرَّب شيء، ولا ينفذ من خلاله شيئ، فيصير القلب كالصفا الوارد في الحديث(١).

ومن سيقوم بهذه العملية بجدارة هو القرآن العظيم.. نعم.. القرآن الكريم، أعظم شفاء للقلوب، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ يونس: ٥٧، والقرآن وحده هو الذي يعطي جرعة قوية ومتكاملة من كل مكونات الدواء المطلوب لمريض الغفلة، وتفصيل ذلك أنَّ:

- القرآن علم: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ العنكبوت: ٤٩.

- القرآن موعظة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ يونس: ٥٧، ولا يوجد أفضل، وأتمَّ، وأكمل من القرآن الكريم علماً ولا موعظةً، فهو الأصل والأساس لكلِّ العلوم والمعارف والمواعظ.

وفوق ذلك.. القرآن سيحقِّق كل المواصفات المطلوبة في القلب اليقظ، وهي كمال الحياة، وتمام الاستنارة، فيتحرَّك، ويرى الحقَّ بوضوحٍ ودقة، لأن:

- القرآن نور: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ النساء: ١٧٤، ونور القرآن أقوى من نور الشمس، فقائله هو نور السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ النور: ٣٥.

- القرآن روح، يبعَثُ الحياة في القلب كالروح في الجسد، قال تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ غافر: ١٥، وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَا﴾ الشورى: ٥٢.

المسار الثالث:

نضع ما يضمن انفتاح بابي العلم والموعظة، وانغلاق بابي الشبهة والشهوة،، ليكون ذلك هو الأصل المستمر، وما خالفه استثناءٌ عارضٌ، ويُفَصَّل ذلك في كيفية سير العلاج..

---

(١) ذكر الحديث بتمامه وتخريجه ينظر: (ص: ١٨)

ثالثًا – سير عملية إيقاظ القلب:

بعد إقصاء العوامل المساعدة (وذلك بمثابة التحضير للعملية)؛ سنعرِّضُ القلب للقرآن صوتاً ولفظاً ومعنىً، وستختلف القلوب في سرعة الالتقاط، ولكن غالباً ما يحدث التأثُّر، أو الاستجابة ولو بالتكرار، ومن نماذج التأثر بالقرآن العظيم ما حدث مع الوليد بن المغيرة لما قال: "وَالله إِنَّ لِقَوْلِهِ حَلَاوَةً، وَإِنَّ أَصْلَهُ لمغدق وَإِنَّ فَرْعَهُ لَجَناً"(١)، وهذا نموذج لمتأثِّرٍ مكابرٍ، لم يستجب، ولكن قطعاً فيه اشارة لقوة تأثير القرآن كما قال عنه مُنْزِله تعالى:﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾ الحشر: ٢١، ومن نماذج الاستجابة بعد سماع القرآن الكريم:

- ما حدث مع الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، جاء في قصة اسلامه: "...فقرأ عليه آيات من سورة طه، وظل عمر يُنْصِت إلى القرآن الكريم، ثم انخرط باكياً ولم يتمالك نفسه، وهكذا آمن عمر منذ ذلك الوقت بالنبي وبالقرآن الذي أُنْزل عليه، وصار من خرج يريد قتل النبي هو أكثر الناس اعتزازًا بفداء النبي صلى الله عليه وسلم، والدين الحنيف"(٢).

- ما حدث مع جبير بن مطعم، روى مُحَمَّدِ بْنِ جبير ابن مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ في المغرب بالطور، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الْآيَةَ:﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ...﴾ إلى قوله:﴿أَمۡ لَهُمۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ الطور: ٣٥–٤٣، قال:كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ(٣).

هذه المواقف وغيرها تؤكِّدُ أن القرآن قادرٌ على إجراء هذه العملية بنجاحٍ منقطع النظير، وقادرٌ كذلك على الخط الثالث، وهو:

المحافظة على وضعية الأبواب الأربعة (تثبيت)

(١) دلائل النبوة، البيهقي (٢/ ٢٠٠)

(٢) رحمة للعالمين، المنصورفوري (ص: ٥٩)

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير (٧/ ٤٣٧)

وذلك عن طريق الارتباط الوثيق بالقرآن الكريم من خلال كثرة التلاوة، قراءة التفسير، تدبر الآيات، جمع واستنباط الهدايات، ودليل ذلك ما أفادته الفاء في قوله تعالى:﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ يس: ٦ فقد أفادت أنَّ غفلتهم تسبَّبت عن عدم إنذارهم، فكلّ أمةٍ انقطع عنها الوحي وتُرِك فيها التذكير واقعة في الغفلة لا محالة. ولما كان ترك الإنذار والتذكير مُوقعاً في الغفلة؛ فالإنذار والتذكير يُزيلانها، فقد عرَّفتنا الآية الكريمة بسبب الغفلة، وبعلاجها.!(١).

ثم بعد العلاج الأول الذي هو بمثابة عملية القلب المفتوح؛ لا بد من الاستمرار في برنامج وقائي وغذائي مستمر، أصله القرآن الكريم والسنة المطهرة، لأنَّ السنة هي الشارحة والمبيِّنة للقرآن، وهي التي تُنشِّط قوة الفكر في القلب، فنضمن يقظته الدائمة، قال تعالى:﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ النحل: ٤٤، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أيها الناس إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً كتاب الله وسنة نبيه"(٢). قال الألباني: " السنة عصمة من الوقوع في الخطأ، وأمان من التردي في الضلال"(٣).

ويمكن تفصيل البرنامج الوقائي الغذائي في النقاط الآتية:

١/ طلب العلم العميق والفهم الدقيق الذي يحمل على العمل، قال ابن مسعود:"من كان منكم مستناً فليستن بمن قد مات، فإن الحيَّ لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد، أبرَّ هذه الأمة قلوباً، **وأعمقها علماً**...."(٤). وهذا من الفروق الجوهرية بين يقظة الصحابة التي ناسبت علمهم عمقاً؛ ويقظة كثير من المتأخِّرين -إن استيقظوا- .!!

---

(١) ينظر: آثار ابن باديس (٢/ ٧٣)

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب: العلم، حديث رقم (٣٢٢) وقال:"صحيح الإسناد، احتجَّ البخاري بعكرمة، واحتج مسلم بأبي أُوَيْس، وله أصل في الصحيح"، ينظر: المستدرك (١/ ٣٨٦)

(٣) مقالات الألباني (١٤٢٠) (ص: ٣٤)

(٤) البداية والنهاية، ابن كثير (٢٠/ ٤٣٣)

٢/ التنويع في العلم، فلكلِّ صنف من العلوم ميزة وأثر في المحافظة على اليقظة، قال الشافعي:"من تَعَلَّمَ القرآنَ نبل قدره، ومن تعلم الحديث قويت حجته، ومن تعلم الفقه صحَّت عبادتُه، ومن تعلم السيرة رقَّ طبعه، ومن تعلَّم اللغة جَزُلَت عبارته، ومن لم يَصُنْ نفسَهُ لم ينفعه عِلْمُهُ"(١).

٣/ الاعتدال في المواعظ ومراعاة ضوابطها ومواصفاتها لتكون مؤثِّرة ومنتجة، وعدم الاعتماد عليها في التربية، فالموعظة أثرها قد يكون قويًا، ولكنه سريع الزوال، ويضعف مع كثرة التكرار، والعلم أثره هادئٌ ومستمر مع كثرة الترداد، فبه البناء للفرد أقوى وأكثر تماسكاً، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي الأَيَّامِ، كَرَاهَةَ السَّآمَةِ عَلَيْنَا"(٢)، وقال عمرو بن عثمان المكي: العِلمُ قائدٌ، والخوفُ سائقٌ، والنَّفسُ حَرُونٌ بينَ ذلِكَ، جُمُوحٌ خَدَّاعَةٌ رَوَّاغَةٌ. فاحذَرْها، وراعِهَا بسياسةِ العِلمِ، وَسُقهَا بتهديدِ الحوفِ: يتِمُّ لَكَ ما تُريدُ(٣).

٤/ الاستفادة من التقدُّم العلمي الهائل، ومن الاكتشافات العلمية والطبية في تعميق الإيمان وزيادة اليقين، فهذا مما يقود إلى تعظيم الخالق، وعدم غفلة القلب عنه.

٥/ الاجتماع والتعاون، وإحياء شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ العصر: ١ – ٣.

٦/ الاهتمام بالمحاضن التربوية التي تدعم المجهود الفردي والأسري في المحافظة على اليقظة، وتخلق وسطًا نقيًا من الشبهات والشهوات التي لوَّثت الأجواء، وأزكمت الأنفاس..

٧/ تكثيف الدعاء للنفس وللغير بتحقيق الاستقامة واليقظة الكاملة، بعد سلوك طُرِقها، وبذل أسبابها، ولا يهلك مع الدعاء أحد .. ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ آل عمران: ٨.

(١) الفوائد والأخبار، ابن حمكان (ص: ١٤٠) أثر رقم (٣١)

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: العلم، بَابُ: مَا كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عليهِ وسلَّم يتخَوَّلُهُم بالموعِظةِ (١/ ٢٥) رقم (٦٨)

(٣) تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادي (١٢/ ٢١٩)

الخــــــاتمــــــــة

في خاتمة هذا البحث أحمد الله وأشكره على عونه وتوفيقه، ثمَّ أورد أهم النتائج والتوصيات:

أولاً – النتائج:

١. الوظيفة المعنوية للقلب تتطابق مع الوظيفة الحسية في أهميتها، وكيفية أدائها.

٢. الغفلة داء خطير يشبه مرض الإيدز للبدن، وكل أمراض القلوب هي من مضاعفاته، ويمكن أن يطلق عليه مرض فقدان القوة والمناعة المعنوية للقلب.

٣. وردت مادة (غفل) في القرآن الكريم خمسًا وثلاثين مرة، في خمس وثلاثين آية، خمس وعشرون منها مكية، وعشر آيات مدنية. وردت بثمان صيغ، ولكلِّ موضع دلالات وهدايات..

٤. الغفلة ناتجة عن إغلاق مدخلي العلم والموعظة، أو أحدهما، وينتج عن ذلك فتح مدخلي الشبهة والشهوة، أو أحدهما..

٥. التناسب بين فتحتي العلم والشبهة، وفتحتي الموعظة والشهوة عكسي.

٦. النفس هي التي تَتَسبَّب في الإصابة بالمرض، ولذلك فالمسؤولية حِياله فردية ذاتية.

٧. الغفلة نومة القلب وهي تطابق نومة العين.

٨. كل الأسباب المساعدة على نوم العين لها مشابه يساعد على غفلة القلب.

٩. الغفلة أقسام وأنواع مختلفة، ويمكن تقسيمها بعدة اعتبارات.

١٠. أسوأ أنواع الغفلة هي الغفلة المركَّبة العميقة، وغالبًا ما تكون مستمرة..

١١. أعراض الغفلة تختلف بحسب نوعها، وتتفاوت بحسب قوَّتها، ولا يسلم منها أحدٌ –غالبًا–.

١٢. الابتعاد عن الأسباب المساعدة على الغفلة يدعم ويُعَزِّز عملية العلاج.

١٣. القرآن الكريم هو انجع وأنجح دواء للغفلة.

١٤. أي قصور في أثر القرآن الكريم على الغفلة ناتج من تقصير أو خطأ في التداوي به.

ثانياً – التوصيات:

أثناء كتابة البحث، وبعد الانتهاء منه؛ بدت لي بعض الثغرات، وظهرت لي بعض التساؤلات التي يمكن أن تتمَّ معالجتها من خلال مجهودات اللاحقين، وعليه فإني أوصي بالآتي:

١/ كتابة المزيد من الأبحاث حول هذا الموضوع المهم.

٢/ كتابة بحث مستقل عن ورود الغفلة في القرآن الكريم ودلالاته وهداياته.

٣/ السعي لربط الأمة بهدايات القرآن الكريم للوقاية والعلاج من الغفلة.

٤/ إحياء سنة الجهر بالقرآن الكريم والدعوة بتلاوته، لتمكين عامة الناس من سماعه.

٥/ الحرص على تناول كل الموضوعات في ضوء الهدايات القرآنية..

وأخيرًا ..

فإني لا أدَّعي العصمة ولا الكمال، فحسبي أني بذلت جهدي، واستفرغت وسعي، فأدَّيت بذلك ما أرجو أن يكون ذخرًا لي عند ربي الذي يحب الإتقان في العمل، فما يكون من الصواب فمن الله الموفِّق الوهَّاب، وما يكون من خطأٍ فهو من نفسي والشيطان، والله ورسوله وكتابه منه براء.

أسأل الله برحمته التي وسعت كل شيء أن يرحمني، وأن يعفو عني، وأن يتجاوز عما وقع مني من خطأ أو غفلة، وأسأله سبحانه أن يكتب هذا العمل في ميزان حسناتي، ويجزل المثوبة لكل من تسبَّب فيه، وأسأله جل جلاله أن يغفر لي ولوالدي ولجميع علماء الأمة، وأخصُّ منهم الأئمة الأعلام الذين نقلت عنهم، وأفدت منهم في هذا البحث.

والحمد لله رب العالمين

وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرًا..

فهرس المصادر والمراجع

أولاً القرآن الكريم		
١.آثار ابن باديس، الصنهاجي (ت:١٣٥٩هـ)		٥٨.سنن ابن ماجة (ت: ٢٧٣هـ)
٢.إحياء علوم الدين، أبو حامد الغزالي (ت: ٥٠٥هـ)		٥٩.الشامل في الصناعة الطبية، ابن النفيس (ت: ٦٨٧هـ)
٣.آداب النفوس، الحارث المحاسبي(ت: ٢٤٣هـ)		٦٠.شرح الأصول الثلاثة، محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ (ت: ١٣٨٩ هـ)
٤.إرشاد العقل السليم، محمد أبي السعود (٩٨٢هـ)		٦١.شرح السنة، ابن الفراء البغوي (ت: ٥١٦هـ)
٥.أسباب النزول، الواحدي، (ت: ٤٦٨هـ)		٦٢.شرح القصيدة الدالية، الكلوذاني (ت:٥١٠ هـ)
٦.الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، عبد الصمد		٦٣.شرح المفصل، ابن يعيش (ت: ٦٤٣هـ)
٧.إغاثة اللهفان، ابن القيم (ت: ٧٥١هـ)		٦٤.شرح صحيح البخارى، ابن بطال (ت: ٤٤٩هـ)
٨.اقتضاء العلم العمل، الخطيب البغدادي (ت: ٤٦٣هـ)		٦٥.صحيح البخاري محمد بن إسماعيل بن المغيرة (ت:٢٥٦هـ)
٩.الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار، يحى بن أبي الخير (ت: ٥٥٨هـ)		٦٦.صحيح مسلم بن الحجاج (ت: ٢٦١هـ)
١٠.بحر العلوم، السمرقندي (ت : ٣٧٣هـ)		٦٧.صيد الخاطر، ابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)
١١.البداية والنهاية، إسماعيل بن كثير (ت:٧٧٤هـ)		٦٨.الطب النبوي، ابن القيم الجوزية (ت: ٧٥١هـ)
١٢.البرهان في علوم القرآن، الحوفي (ت: ٤٣٠ هـ)		٦٩.العذب النمير من مجالس الشنقيطي في التفسير (ت: ١٣٩٣هـ)
١٣.البرهان في علوم القرآن، الزركشي (ت: ٧٩٤ هـ)		٧٠.علم التشريح ووظائف الأعضاء ، ps:www.etelmdelivery.com
١٤.تاريخ بغداد ، الخطيب البغدادي(ت: ٤٦٣هـ)		٧١.علم وظائف الأعضاء، صباح ناصر العلوجي

١٥.تأويلات أهل السنة، الماتريدي (ت: ٣٣٣هـ)		٧٢.العلماء مالهم وما عليهم، القرني
١٦.التحرير والتنوير، ابن عاشور (١٣٩٣هـ)		٧٣.العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت:١٧٠هـ)
١٧.تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة، ابن عمر البيضاوي (ت ٦٨٥هـ)		٧٤.فتح الباري، ابن حجر العسقلاني (ت:٨٥٢)
١٨.تذكرة السامع والمتكلم، بن جماعة (ت: ٧٣٣ هـ)		٧٥.فتح القدير، الشوكاني (ت: ١٢٥٠هـ)
١٩.تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد، الصنعاني		٧٦.فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) (ت: ٧٤٣ هـ)
٢٠.التعريفات، الجرجاني (ت: ٨١٦هـ)		٧٧.فصل الخطاب في الزهد والرقائق والآداب، محمد نصر الدين محمد عويضة
٢١.تفسير ابن رجب الحنبلي (ت: ٧٩٥هـ)		٧٨.الفوائد والأخبار، ابن حمكان (ت: ٤٠٥هـ)
٢٢.تفسير ابن عرفة (ت: ٨٠٣هـ)		٧٩.الفوائد، ابن القيم(ت: ٧٥١هـ)
٢٣.تفسير الإيجي جامع البيان (ت: ٩٠٥هـ)		٨٠.الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨ هـ)
٢٤.التفسير البسيط، الواحدي (ت: ٤٦٨هـ)		٨١.كشف الخفاء، إسماعيل العجلوني(ت: ١١٦٢هـ)
٢٥.تفسير التستري (ت: ٢٨٣هـ)		٨٢.الكفاية في التفسير بالمأثور والدراية، د. عبد الله خضر حمد
٢٦.تفسير الشعراوي (ت: ١٤١٨هـ)		٨٣.الكوثر الجاري، الكوراني (ت: ٨٩٣ هـ)
٢٧.تفسير القرآن العظيم، ابن كثير(ت:٧٧٤هـ)		٨٤.كوثر المعاني الدراري، الشنقيطي(ت:١٣٥٤هـ)
٢٨.تفسير عبد الرزاق (ت: ٢١١هـ)		٨٥.لباب التأويل، الخازن (ت: ٧٤١ هـ)
٢٩.تفسير مجاهد بن جبر (ت: ١٠٤هـ)		٨٦.لسان العرب، ابن منظور (ت: ٧١١هـ)
٣٠.تفسير مقاتل بن سليمان (ت: ١٥٠هـ)		٨٧.مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (ت: ٧٢٨هـ)
٣١.تكملة المعاجم العربية، دوزي (ت: ١٣٠٠هـ)		٨٨.مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة (ت:٦٨٩هـ)

٣٢.تيسير الكريم الرحمن، السعدي (ت: ١٣٧٦هـ)		٨٩.مدارج السالكين، ابن القيم (ت: ٧٥١هـ)
٣٣.التيسير بشرح الجامع الصغير، المناوي (ت: ١٠٣١هـ)		٩٠.مرقاة المفاتيح، الهروي القاري (ت: ١٠١٤هـ)
٣٤.جامع البيان، ابن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ)		٩١.مستدرك على الصحيحين، الحاكم (ت: ٤٠٥ هـ)
٣٥.جامع العلوم والحكم، ابن رجب (ت: ٧٩٥هـ)		٩٢.مسند أحمد بن حنبل الشيباني (ت: ٢٤١ هـ)
٣٦.جامع بيان العلم وفضله، أبو عمر القرطبي (ت: ٤٦٣هـ)		٩٣.مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي (ت: ٨٨٥هـ)
٣٧.الجامع لأحكام القرآن، القرطبي (ت:٦٧١هـ)		٩٤.المصباح المنير، الحموي (ت: نحو ٧٧٠هـ)
٣٨.حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، الصاوي (ت: ١٢٤١هـ)		٩٥.مصنف ابن أبي شيبة (ت: ٢٣٥ هـ)
٣٩.الحدود الأنيقة ، السنيكي (ت: ٩٢٦هـ)		٩٦.مطالع الأنوار، ابن قرقول (ت: ٥٦٩هـ)
٤٠.حقائق التفسير، السلمي (ت: ٤١٢ هـ)		٩٧.معجم الفروق اللغوية، العسكري (نحو ٣٩٥هـ)
٤١.حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصفهاني (ت: ٤٣٠هـ)		٩٨.المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي
٤٢.الخصائص، أبو الفتح ابن جني (ت: ٣٩٢هـ)		٩٩.المعجم الوسيط (مصطفى، الزيات وآخرون
٤٣.الداء والدواء، ابن القيم (ت: ٧٥١هـ)		١٠٠.معجم لغة الفقهاء، قلعجي- قنيبي
٤٤.درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ)		١٠١.المغرب في ترتيب المعرب المطرزي (ت:٦١٠هـ)
٤٥.درر الفوائد من أقوال الشيخ محمد بن محمد المختار الشنقيطي		١٠٢.مفاتيح الغيب، الرازي (ت: ٦٠٦ هـ)
٤٦.دلائل النبوة، ومعرفة أحوال صاحب الشريعة البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)		١٠٣.مفتاح دار السعادة، ابن القيم(ت: ٧٥١هـ)

٤٧.ديوان أبي إسحاق الإلبيري (ت: ٤٦٠هـ)		١٠٤.المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهانى (ت: ٥٠٢هـ)
٤٨.ذم الهوى، ابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)		١٠٥.المقاصد الحسنة، السخاوي (ت: ٩٠٢هـ)
٤٩.رحمة للعالمين، المنصورفوري (ت: ١٣٤٨هـ)		١٠٦.مقالات الألباني (ت: ١٤٢٠هـ)
٥٠.روائع الطب الإسلامي، الدقر		١٠٧.مقاييس اللغة، ابن فارس (٣٩٥هـ)
٥١.الروح، ابن القيم (ت: ٧٥١هـ)		١٠٨.منازل السائرين، الهروي (ت: ٤٨١هـ)
٥٢.روح البيان، الخلواتي (ت: ١١٢٧هـ)		١٠٩.مناقب الإمام أحمد، ابن الجوزي (ت: ٥٩٧هـ)
٥٣.الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي، الأزهري الهروي (ت: ٣٧٠هـ)		١١٠.موسوعة وصايا للدعاة الى الله، أمير بن محمد المدري
٥٤.الزهد والرقائق، ابن المبارك (ت: ١٨١هـ)		١١١.نظم الدرر، البقاعي(ت:٨٨٥ هـ)
٥٥.زهرة التفاسير، أبو زهرة (ت: ١٣٩٤هـ)		١١٢.الهدايات القرآنية دراسة تأصيلية، طه عابدين، يس قارئ، فخر الدين الزبير
٥٦.سلسلة الآثار الصحيحة، آل زهوي		١١٣.https://alwadaniclinic.com
٥٧.سلسلة الأحاديث الصحيحة، الألباني (ت: ١٤٢٠هـ)		١١٤.https//www . sawtbeirut . com

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ملخص البحث	١
المقدمة	٢
تمهيد أولاً – تشريح القلب ثانيًا – وظائف القلب	٧
(أ) وظبفة القلب الحسية (ب) وظيفة القلب المعنوية	٨
(ج) المقارنة بين الوظيفة الحسية والوظيفة المعنوية	٩
المبحث الأول: حقيقة الغفلة وأسبابها يحتوي على ثلاثة مباحث	١١
المطلب الأول: تعريف الغفلة في اللغة والاصطلاح	١١
أولًا - تعريف الغفلة في اللغة	١١
ثانيًا – الفرق بين الغفلة والنسيان والسهو	١٢
ثالثًا – تعريف الغفلة في الاصطلاح	١٣
المطلب الثاني: ورود الغفلة في القرآن الكلايم ودلالاته	٢٠
أولًا - ورود الغفلة في القرآن الكريم	٢٠
ثانيًا - دلالات وهدايات ورود الغفلة في القرآن الكريم	٢٣
المطلب الثالث: أسباب وكيفية وخطوات حدوث الغفلة	٢٧
أولًا – سبب وكيفية حدوث الغفلة	٢٧
ثانيًا – خطوات النفس في إحداث الغفلة	٣٥
ثالثًا – العوامل المساعدة على غفلة القلب	٤٢
جدول للمقارنة بين عوامل نوم العين وعوامل غفلة القلب	٤٧

المبحث الثاني: أقسام الغفلة وأعراضها وكيفية علاجها	٤٨
المطلب الأول: أقسام الغفلة وأنواعها	٤٨
أولًا – أقسام الغفلة	٤٨
رسم يوضح التعانق بين أقسام الغفلة	٥٢
ثانيًا – أنواع الغفلة	٥٣
المطلب الثاني: أعراض الغفلة وعلاماتها	٥٧
أولًا - أعراض تتعلق بالجانب العلمي	٥٧
ثانيًا – أعراض تتعلق بالجانب العملي	٥٨
ثالثًا – أعراض ناتجة عن الخلل في الجانبين	٥٩
المطلب الثالث: علاج الغفلة	٦٠
أولاً – تعريف اليقظة	٦١
ثانيًا – المسارات الثلاثة المتوازية لعلاج الغفلة	٦٣
ثالثًا – سير عملية إيقاظ القلب	٦٥
الخاتمة	٦٨
قائمة المصادر والمراجع	٧٠
فهرس الموضوعات	٧٣